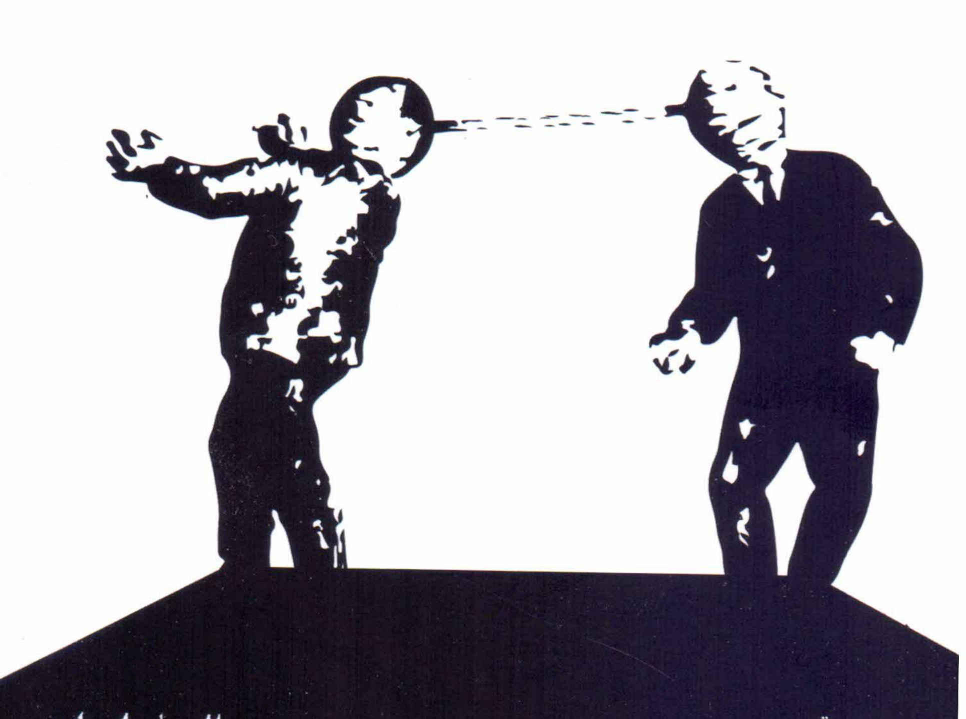
إتيان دو لا بويَسي

العبودية المختارة

'مرافعة قوية ضدّ الطغيان'
Montaigne



ترجمة
صالح الأشمر

دار الساقي

'الحل الإنساني لمشكلة السلطة'
Pierre Mesnard

تطرح العبودية المختارة مسألة شرعية الحكام الذين يسمّيهم الكاتب 'أسياداً' أو 'طغاة'، مهما كانت طريقة وصولهم إلى السلطة، سواء بالقوة أو الوراثة أو الانتخاب.

في موضوع خضوع الشعوب غير المفهوم لـ'شخص واحد' لم يُكتب يوماً بحثٌ أوثق صلةً ولا أكمل من هذا البحث.

هذه المقالة التي كتبها فتى في السادسة عشرة أو الثامنة عشرة من العمر، ونُشرت عام 1576، لا تزال محتفظةً براهنيّتها.

إتيان دو لا بويَسي (1530-1563) كاتب وقاضٍ فرنسي.


ISBN 978-6-14425-870-5
9 786144 258705 >
DAR AL SAQI
دار الساقي
www.daralsaqi.com

العبودية المختارة

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

إتيان دو لا بويَسي

العبودية المختارة

ترجمة

صالح الأشمر



Etienne De La Boétie, *La Servitude volontaire*

الطبعة الأولى 2016

ISBN 978-6-14425-870-5

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033—6114
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

توطئة

لا تُعرف أشياء كثيرة عن طفولة إتيان دو لا بويَسي سوى أنه ولِد في عام ١٥٣٠ في مدينة سارلات قرب بوردو، ونشأ في عائلة من القضاة إذ كان والده أنطوان قاضياً ووكيلاً للطبقة الأرستقراطية في إدارة أعمالها. وقد توفي والده وهو طفل صغير فتكفّله عمه إستبان، وهو قاضٍ وكاهن، وتولّى تربيته وتعليمه وكان له بمثابة أبٍ ثان.

بعد أن فرغ دو لا بويَسي من دراسة الإنسانيات، كما كان مألوفاً آنذاك، مال إلى دراسة النصوص القديمة اليونانية واللاتينية، ثم درس الحقوق في جامعة أورليان. وفي تلك الفترة وضع مقالته "العبودية المختارة" عام

١٥٤٧ وكان في الثامنة عشرة من العمر. وبعد أن حصل على شهادة الحقوق أصدر الملك هنري الثاني قراراً بتعيينه مستشاراً في برلمان بوردو وهو في الثالثة والعشرين من عمره، أي قبل عامين من بلوغه السن القانونية لتولي هذا المنصب.

في العام ١٥٦٠ كُلّف دو لا بويَسي من قِبَل صديقه الذي كان يكبره بعشرين سنة ميشال دو لوبيتال، مستشار الملكة الأم كاترين دي ميديسين، أن يشرح لأعضاء برلمان بوردو المنحازين إلى الكاثوليك فوائد السلام ووضع نهاية للحرب التي كانت دائرة آنذاك بين الكاثوليك والبروتستانت. وبعد صدور المرسوم الملكي بشأن التسامح الديني وإعطاء البروتستانت حرية ممارسة شعائرهم الدينية كتب دو لا بويَسي مذكرة تناول فيها المآسي الناجمة عن الصراعات الدينية موضحاً أن استخدام القوّة لا ينهي المشكلة بل يزيدها تعقيداً.

في هذه الأثناء تزوّج إتيان دو لا بويَسي من مرغريت دو كارل وهي ابنة رئيس برلمان بوردو وأرملة ثرية.

وفي عام ١٥٦٣ أصيب بمرض خطير يرجّح أنه مرض السل فقرّر السفر إلى منطقة ميدوك حيث تمتلك زوجته أراضي واسعة وذلك للإفادة من مناخها، وبينما كان في طريقه تدهور وضعه الصحي فعرّج على منزل زميله في البرلمان ريشار دو لستوناك، وهو صهر صديقه الكاتب ميشال دو مونتاني، حيث أمضى بقية أيامه وأملى وصيته في ١٤ آب/أغسطس. وقد أشار مونتاني إلى ذلك في رسالة إلى عمّه ختمها بقوله: "في الثامن عشر من شهر آب/أغسطس عام ١٥٦٣ لفظ إتيان دو لا بويَسي أنفاسه الأخيرة ولم يبلغ من العمر سوى ٣٢ سنة و٩ أشهر و١٧ يوماً".

لم تُنشر مقالة "العبودية المختارة" في حياة مؤلفه ولكنه أطلع عليها صديقه مونتاني عندما ألّفها، وكان أول مَن نشرها هم الكتبة البروتستانت الذين كانوا يعارضون الملكية المطلقة. ثم نشرها مونتاني في كتابه **مقالات** مع نبذة عن الكاتب تضمنتها مقدمة هذه النسخة.

تعدّ **العبودية المختارة** مرافعة قوية ضدّ الطغيان حاول

كاتبها أن يتقصّى أسباب خضوع الناس لحكم شخص واحد لا يملك من القوة إلا ما أعطوه. وقد تضمّنت أمثلة كثيرة عن الطغيان والطغاة وحاشيتهم في العصور القديمة اليونانية والرومانية مما سمح للمؤلف بانتقاد الوضع السياسي القائم في أيامه تحت ستار البحث العلمي.

ويرجّح معظم الباحثين أن الأسباب التي قادت دو لا بويَسي إلى كتابة **العبودية المختارة** تعود إلى ما شهده عصره من اضطهاد على أساس الاختلاف الديني والمآسي التي وقعت في أثناء الحرب الأهلية الضارية بين البروتستانت والكاثوليك، إضافةً إلى الانتفاضات التي قامت في بعض المقاطعات الفرنسية المحرومة ضد التعسّف الضريبي والقمع الدموي الذي مارسته القوات الملكية لفرض النظام.

وجملة القول إن **العبودية المختارة** تطرح مسألة شرعية الحكام الذين يسمّيهم إتيان دو لا بويَسي "أسياداً" أو "طغاة" مهما كانت طريقة وصولهم إلى السلطة سواء بالقوة، أو بالوراثة، أو بالانتخاب، وأنّ ما يُفسّر هيمنة

هؤلاء الطغاة ليس حسن إدارتهم للملك طبعاً، ولا سيّما أن أكثرهم يتميزون بانعدام الكفاءة، ولكن العادة، أكثر من الخوف، هي التي تفسّر استمرار الشعب المستعبد في احتمال وطأة الاستعباد. ثم يأتي الدين والخرافة كعاملين من عوامل الخضوع إلا أنهما لا ينطبقان إلاّ على الجهلة من العوام. ثم إنّ سِرَّ كل طغيان إنما يكمن في إشراك فئة قليلة من المستعبدين في اضطهاد سائرهم، وهكذا يرمي الطاغية بالفُتات إلى زُمرة المتملّقين من أتباعه فلا يكتفي هؤلاء بما يغنمون منه ولا بدوام طاعتهم له بل إنهم يستبقون رغباته ويحدسون ما يريد قبل أن يفصح هو عنه. وهؤلاء المتملقون المقربّون إلى الطاغية يختارون العبودية طواعيةً، بينما يكون الشعب مكرهاً عليها. على هذا الأساس يقوم هرم الطغيان: يُخضع الطاغية خمساً من الأتباع، ويُخضع هؤلاء مئة غيرهم، والمئة تُخضع ألفاً، علماً أن هذا الهرم سرعان ما يتهدّم ما إن يكفّ المتملقون عن بذل أنفسهم قلباً وجسداً في سبيل الطاغية وعندئذٍ يفقد كل سلطة اكتسبها ويسقط عن عرشه. ثم إن الطاغية لمّا لم يكن له نظير

ولا رفيق يعادله فهو يعيش في خوفٍ دائم، فالجميع يخشاه ولذلك فهو معرّض للاغتيال في كل لحظة من قبل المقربين إليه بوجه خاص، وهذا ما ساق له المؤلف أمثلةً كثيرة عن مصائر الطغاة في العصور القديمة.

صالح الأشمر

تقديم

"لِنُصْغِ إلى هذا الصبيّ البالغ من العمر ستّة عشر عاماً..."

هذا واحد من النصوص التي حظيت بأكبر قدر من التأويل في اللغة الفرنسية، وسعى كل مفسّر له عبر العصور إلى تأويله على هواه، كيما يُقوِّله ما لا يقوله على الأرجح. ولقد حذّرنا مونتاني في الفصل الثامن والعشرين من مؤلَّفه **مقالات** قائلاً: "وجدت أن هذا العمل قد أبصر النور مذذاك لغاية سيّئة من قِبل أولئك [البروتستانت] الذين يسعون للإخلال بانتظامنا العام وتغييره من دون أن يعبأوا بإصلاحه". ثم إن "الغايات السيئة"، و"الغايات الحسنة"، لِمَ لا؟، تعدّدت منذ ذلك الحين. فخطاب الفتى اليافع ألهب حماسة المفكرين

المنفتحين، السموحين، أمثال أولئك الباحثين عن فوائد عاجلة، نظرية أكثر منها مثالية...

هذه المقالات هي في الواقع لِفتىً في السادسة عشرة من العمر، كما يخبرنا مونتاني - ودائماً في فصل "عن الصداقة" حيث يقول على وجه الدقة: "لنُصْغِ قليلاً إلى هذا الصبيّ البالغ من العمر ستة عشر عاماً[1]".

يوضح لا بويَسي في العبودية المختارة أن موافقة المستَرقّين لا قوّة الطاغية هي التي تؤسّس الطغيان. وإن قبول الشعوب باسترقاقها، المتأتي من رغبتها، ومن أنانيتها، ومن طمعها، هو الذي يُتيح لواحد، تعضده شبكة رفيعة لكنها ذات تسلسل هرمي ومتضامنة، أن يوطّد سلطانه برضا الجميع.

وإذ يُعرب لا بويَسي عن إيمان نسبيّ بالتاريخ، وبتطوّر المجتمعات الإنسانية، وبإمكانية انعتاق الناس من نير العبودية إن أرادوا ذلك، فإنه يوصي بالصداقة

١ لقد بالغ مونتاني بشأن النضج الأدبي المبكر لا لإتيان دو لا بُويَسي في تصحيحاته الأخيرة لـ مقالات، لأن الطبعات الصادرة في حياته تُفيد أنه "[...] لم يبلغ الثامنة عشرة من العمر".

والوِئام والرِفق – ويَعلم اللهُ إن كان هذا الشاب وأناه الآخر مونتاني يوضحان لنا بالقدر الكافي ما المقصود بذلك! – لموازنة الحسد والطمع واللامبالاة بمصير الغير، وهي أولى أسباب القبول بالعبودية. (والمدهش، فضلاً عن ذلك، أن مسيحياً معترفاً إلى هذا الحدّ لا يذكر البتّة – من ضمن الأسلحة التي تُمكّن من مكافحة الحسد والطمع – أخصّ الفضائل اللاهوتية ألا وهي الإحسان).

أما أن يدافع كتّاب مرموقون عاشوا قبل الثورة، وكذلك بعض رموز الثورة المتحمّسين – أمثال فليسيته دو لامنيه[1]، في مقدمته **للعبودية المختارة**، أو جان – بول مارا[2]، في <u>**سلاسل العبودية**</u>، الصادر في لندن عام ١٧٧٤

---

١ Félicité de Lamenais (١٧٨٢–١٨٥٤) كاتب ومفكر فرنسي. دخل السلك الكهنوتي. بدأ ملكياً وبابوياً متطرّفاً. نادى بتبعية السلطة الزمنية للسلطة الروحية. أنشأ في عام ١٨٣٠ صحيفة المستقبل *L'Avenir* التي عبّرت عن نزعة مسيحية ليبرالية مؤيدة لفصل الكنيسة عن الدولة. أدانته السلطة الكاثوليكية في روما. اتجه بعد ذلك نحو نزعة إنسانوية ديمقراطية. انتخب ممثلاً للشعب في الجمعية التأسيسية عام ١٨٤٨. (المترجم)

٢ Jean Paul Marat (١٧٤٣–١٧٩٣) طبيب وصحافي وسياسي =

– عن هذا الخطاب، ويتملّقوه، ويحرفوه عن مقصده بما يناسبهم، فليس في ذلك ما يدعو إلى الدهشة. وأما أن يكون لا بويَسي قد أراد أن يصِمَ الملكية المطلقة الفرنسية، والملكية المطلقة بوجه عام، فليس بالأمر المؤكّد. لكن من عوارض قِصر النظر يقيناً أن لا يرى فيه سانت – بوف[1] سوى تمرين في الإنشاء بارع و"تُحفة من تحف البلاغة في الصف الثاني" التي كانت تُنمَّق

= فرنسي، من الشخصيات البارزة في الثورة الفرنسية. درس الطب في فرنسا وزاول المهنة في إنكلترا حيث نشر عدة مقالات فلسفية ولاسيما منها سلاسل العبودية *Les Chaînes de l'esclavage* وهاجم فيها كل أشكال الطغيان والفساد في البلاط. انتمى إلى جماعة الماسونية (١٧٧٤). عاد إلى باريس (١٧٧٦) حيث عمل طبيباً. أسس جريدة صديق الشعب L'Ami du peuble التي عبّرت عن مواقف ثورية متطرّفة. نُفي مجدداً إلى إنكلترا وعاد بعد الثورة (١٧٨٩) إلى فرنسا وانتخب عضواً في الجمعية التأسيسية ممثلاً أقصى اليسار. شارك بقوة في كومونة باريس (١٧٩٣). اغتيل في ١٣ تموز/يوليو ١٧٩٣ على يد فتاة تدعى شارلوت كورداي. أصبح أحد أبطال الثورة الشعبيين. (المترجم)

١ Charles Augustin Sainte–Beuve (١٨٠٤-١٨٦٩) كاتب وشاعر وصحافي فرنسي. كان صديقاً لفيكتور هوغو وانضمّ إلى ناديه الأدبي الذي شجّع الأفكار الرومنسية الوليدة في مقابل الشكلية الكلاسيكية.

بكثرة في ذلك الوقت.

إذا ما كانت الأهواء الثورية آخذة في الاستكانة اليوم، وما زال الطغيان في حالة الدفاع عن النفس، فللقارئ السليم النيّة أن يحكم بما يرى. فنصّ لا بويَسي ليس من تلك النصوص التي تحتاج إلى تفاسير متقّعرة، وأفكار الكاتب ليست خافية فيه؛ ولا يسعى البتّة إلى "تعكير مياهه لكي تبدو عميقة".

ولنا إذاً أن نقرأ **العبودية المختارة** قراءةً من دون فكرة مسبّقة، ولا تأثير، قراءةً نظيفةً من كل الآراء التي لوّثتها، ومتحرّرةً من العنوان المُلفَّق الذي ألصقه بها بعضهم - "ضدّ الواحد".

فَلْنَقْرأها عاملين بنصيحة الصديق الذي لا مثيل له، مونتاني، الذي يحضّنا، في الفصل الثالث من **مقالاته** "عن التجربة"، على أن نبتعد عن المؤوّلين وأن نتمسّك بالنص نفسه: "مَنْ لا يقول إن التفاسير تضاعف الشكوك والجهل؟ فأي كتاب إنساني أو إلهي يهتمّ به العالم ذلّل التفسيرُ من صعوبته؟ وذلك أن التفسير الذي يحمل الرقم مئة يحيله على التفسير التالي، الأكثر تعقيداً

والأصعب من التفسير الذي سبقه" [...]

أخيراً يجد القارئ أدناه المقاطع التي أوردها مونتاني عن نصّ صديقه وفيها يقول:

> [...] هذا خطاب سمّاه **العبودية المختارة**؛ غير أن أولئك الذين جهلوه ما لبثوا أن أطلقوا عليه اسماً آخر هو **ضدّ الواحد**. كتبه بأسلوب المقالة، وهو في مقتبل شبابه، تمجيداً للحرية ضدّ الطغاة. ومنذ زمنٍ بعيد تتداوله أيدي ذوي الألباب الذين زكّوه تزكيةً مستحقّة: لأنه نبيل، وممتلئ ما أمكن. وإن جاز القول إنه ليس العمل الأفضل الذي كان بوسعه أن يعمله؛ ولو أنه كان أكبر سناً عندما تعرّفت إليه وعقد العزم مثلي على أن يكتب ما يمليه عليه خياله المبدع، لرأينا أشياء عدّة نادرة تُقرِّبنا من مجد العصور القديمة؛ لأنني لم أعرف، على وجه الخصوص، في هذه الفئة من

الطبيعة مَن يماثله. لكن لم يبقَ من مؤلفاته إلا هذا الخطاب، وذلك من قبيل المصادفة أيضاً، وأظنُّ أنه لم يره منذ أن خرج من يده، إضافةً إلى بعض المذكرات حول مرسوم كانون الثاني/ يناير[1] الشهير في حروبنا الأهلية، وقد تجد هذه المذكرات مكاناً لها في موضع آخر.

هذا كل ما أمكنني استعادته من ذخيرته، أنا الذي أورثني بوصيّة ملؤها المودّة، وهو في نزعه الأخير، مكتبته وأوراقه، فضلاً عن دفتر مؤلّفاته التي قمتُ بنشرها. وإنني مدين لهذه الوثيقة بوجه خاص، لاسيّما أنها كانت الوسيلة التي جمعت بيننا لأوّل مرّة. ولقد نشأت بيننا صداقة تعهّدناها بالرعاية، إلى ما شاء الله، وكانت على درجة رفيعة من التمام والكمال لم يُقرأ عن مثيلات لها، وليس

١ L'édit de Janvier المعروف بمرسوم التسامح L'édit de Tolérance، الذي أصدره الملك شارل التاسع في كانون الثاني/ يناير ١٥٦٢.

يُرى منها أيّ أثر لدى معاصرينا. صداقة يقتضي بناؤها مصادفات جمّة، وكثيرٌ من ربّة الحظ أن تأتي بمثلها كل ثلاثة قرون.

[...] ولأني وجدت أن هذا المؤلَّف جرى نشرُه منذ ذلك الحين لغاية سيئة، مِن قِبل أولئك الذين يسعون إلى الإخلال بانتظامنا العام وتغييره من دون أن يعبأوا بإصلاحه، ودسّوه بين كتابات أخرى من طينتهم. ولئلا تتأذى ذكرى المؤلّف وسط هؤلاء الذين لم يعرفوا عن كثب آراءه وأعماله، نبّهتهم إلى أنه عالج هذا الموضوع في صباه بأسلوب المناظَرة لا غير كموضوع مبتذل أُشبع بحثاً في عدد لا يُحصى من الكتب. ولستُ أشكّ البتّة في أنه لم يصدّق ما كتبه، لأنه كان شديد الحرص على ألاّ يكذب حتى وهو يلهو. وأعلم علاوةً على ذلك أنه لو كان له أن يختار لآثر أن يكون مولوداً في البندقية

(كانت جمهورية آنذاك) لا في سارلات، وبحق. لكنه كان يؤمن بمبدأ أساسي آخر منطبع في وجدانه أيّما انطباع وهو الامتثال والخضوع التام للقوانين التي ولِد في ظلّها. ولم يكن ثمة مواطن أفضل منه وأكثر إيثاراً لراحة بلاده، وشجباً للقلاقل والبدع، في أيامه. والأرجح أنه استخدم كفاءته لإخمادها وليس لمدّها بما يزيد من احتدامها. لقد كان عقله مُفْرَغاً في قالب يعود إلى عصور غير هذه.

"لا أرى خيراً في تعدُّد الأسياد: كفَى سيّد
واحد، وملك واحد."

هكذا تكلّم عوليس[1] أمام الملأ في إلياذة هوميروس. ولو
أنه لم يقل سوى

"لا أرى خيراً في تعدّد الأسياد"

لأوفى القول ولم يزد. ولكن لمّا تعيَّن تبرير ذلك بأن
سيادة الكثرة لا يمكن أن تكون حسنة لأن سلطان
الواحد، حالما يأخذ لقب السيّد هذا، قاس ومخالف
للصواب، أضاف عاكساً الكلام:

"كفَى سيّد واحد، وملك واحد".

ربما جاز لنا أن نعذر عوليس، الذي كان في حاجة

---

[1] Ulysse بطل أسطوري يوناني، ابن لايرت ملك إيثاكا، وزوج بينيلوب وأبو تيليماخوس، من أبطال حرب طروادة، روى مغامراته الشاعر اليوناني هوميروس Homeros (القرن التاسع ق.م) في ملحمتيه الإلياذة والإنياذة. (المترجم)

حقاً إلى استخدام هذه اللغة لتهدئة شغب الجيش، فجاء كلامه، على ما أعتقد، مطابقاً لزمنه أكثر من مطابقته للحقيقة. لكن إن كان الكلام عن بيّنةٍ وجب القول إن البؤس الذي ليس كمثله بؤس هو خضوع المرء لسيّد لا يمكن أبداً الاطمئنان إلى صلاحه لأن بمقدوره دائماً أن يكون شريراً متى أراد. وما تعدّد الأسياد إلاّ مكابدة أقصى البؤس مراراً بعدد هؤلاء الأسياد.

غير أنني لا أودّ الآن الخوض في هذه المسألة التي دار حولها كثيرٌ من الجدل: إذا ما كانت أشكال الحكم الأخرى أفضل من النظام الملكي. لكنني أريد أن أعرف أي مكانة للملكية بين الأنظمة الجمهورية إذا ما تعيَّن وجود أحدها، لأن من الصعب الاعتقاد أن ثمة قدراً من اعتبار الشأن العام في هذا الحكم الذي يسيطر فيه شخص واحد على كل شيء. بيد أن هذه المسألة متروكة لوقت آخر، وقد تتطلّب مقالة خاصة بها، والأرجح أن تحمل معها المنازعات السياسية كافة.

أما الآن فكل ما أريده هو أن أفهم كيف أمكن لكثيرٍ من الناس، والبلدات، والمدن، والأمم، أن تتحمّل أحياناً

وطأة طاغية وحيد، لا يملك من القوة إلا ما أعطوه، ولا قدرة له على أذيّتهم إلا بقدر ما أرادوا أن يحتملوا منه، ولا يستطيع أن يوقع بهم مكروهاً، إلا لأنهم يفضّلون أن يعانوا منه الأمرّين على أن يعارضوه. ومن عظائِم الأمور حقاً، وإن بلغ من الانتشار حداً يدعو إلى العجب أكثر مما يبعث على الحزن، رؤية الملايين من الناس يخدمون على نحو يُرثى له، والنير في أعناقهم، من دون أن يكونوا مكرهين على ذلك من قوّة أكبر، بل لأنهم، على ما يبدو في صورة ما، مسحورون ومفتونون باسمِ واحدٍ ليس إلا، ما كان ينبغي لهم أن يرهبوا سطوته، لأنه وحيد، ولا أن يحبوا صفاته لأنه يعاملهم معاملة لاإنسانية ووحشية.

إن نقطة الضعف فينا، نحن البشر، هي أنه يتوجب علينا في معظم الأحيان أن نخضع للقوة، وأن نُسوِّف، وأننا لا نستطيع أن نكون الأقوياء دائماً. وعلى ذلك إذا ما أُكرهت أمّة بقوة الحرب على خدمة واحد، شأن مدينة أثينا في عهد الطغاة الثلاثين[1]، فلا ينبغي العجب

[1] Les Trente Tyrans – الطغاة الثلاثون: اسم أطلق على الحكومة الأوليغارشية (حكومة القلّة) التي فرضها الإسبارطيون على روما بعد =

من خدمتها بل الأسف لما ألمّ بها، أو بالأحرى ألاّ يكون ثمة عجب ولا أسف، بل الصبر على تحمّل المكروه، وانتظار حظ أفضل في المستقبل.

من طبيعتنا أن تستغرق واجبات الصداقة المشتركة قسماً كبيراً من مجرى حياتنا. فمن الطبيعي أن نحب الفضيلة، وأن نُقدِّر عالياً الأعمال العظيمة، وأن نعترف بالفضل من حيث لقيناه، وأن ننقص في معظم الأحيان من راحتنا لنزيد من شرف وميزة مَن نُحِبّ ومَن يَسْتحقّ أن يُحَبّ. بناءً على ذلك إذا ما وجد سكان بلد ما وجيهاً منهم برهن بالتجربة عن قدرٍ كبيرٍ من الفطنة والدراية في رعايتهم، وأبدى جرأةً كبيرةً في الدفاع عنهم وتأنِّياً في حكمهم، فاعتادوا طاعته واعتمدوا عليه ومنحوه بعض الامتيازات، فلستُ أدري أمِنَ الحكمة أن ينتزعوه من حيث كان يصنع بهم خيراً

= استسلامها في نهاية حرب البلوبونيز (٤٠٤ ق.م). مارس مجلس الحكم المؤلف من ثلاثين عضواً طغياناً مقيتاً. وجرى إعدام أو نفي الشخصيات الديمقراطية المرموقة من دون محاكمة. بعد ثمانية أشهر تمت الإطاحة بحكومة الطغاة الثلاثين من خلال ثورة قام بها الديمقراطيون. (المترجم)

ليرفعوه إلى حيث يمكنه أن يُنزل بهم شراً. لكن لعلّ من الصواب ألاّ نخشى الشرَّ ممن لم يكن منه إلا الخير إن بقيت طيبتُه على حالها.

لكن يا إلهي! ما هذا؟ كيف نُسمّي هذا؟ أيّ بؤسٍ هو؟ أية رذيلة – أو بالأحرى أية رذيلة بائسة: أن نرى عدداً لا يُحصى من الناس لا يطيعون فحسب بل يخدمون؛ ولا يُحكَمون بل يُضطهَدون؛ لا يملكون شيئاً، لا أهل لهم، ولا نساء، ولا أطفال، بل إن حياتهم نفسها ليست لهم؛ وهم عُرضة لأعمال السلب والنهب، والفجور، والقسوة، لا مِن قِبل جيش، لا من معسكر أجنبي غاشم يجب عليهم أن يبذلوا دماءهم وحياتهم في مقاومته، بل إنهم يقاسون كل ذلك من واحد؛ لا هو هِرقل[1]، ولا شمشون[2]، وإنما هو رُجَيل غالباً ما يكون أجبنَ

١ Hercule، هرقل أو هيركليس بطل أسطوري يوناني. هو ابن كبير الآلهة زيوس من امرأة بشرية تدعى ألكميني، ظهر لها زيوس في صورة زوجها الغائب. اشتهر بقوته الخارقة ومغامراته.

٢ شمشون كان قاضياً لبني إسرائيل، وكان معروفاً بقوته العجيبة. وقعت بينه وبين الفلسطينيين منازعات. تعرّف في غزّة إلى امرأة تدعى دليلة احتالت عليه لتعرف سر قوته العجيبة فاكتشفت أنه في شعره الذي لم =

الأُمّة وأخنثها، لا عهد له بغبار المعارك، بل لا يكاد يتمالك على رمال حلبات المباريات، ولا يقدر على قيادة الرجال بالقوة، بل إنه ليتورّع عن أن يخدم بنذالة أقلّ أُنثى حمقاء. أنُسمّي ذلك جُبناً؟ أنقول إن أولئك الذين يخدمون مثل هذا الطاغية الجبان هم رهطٌ من الرعاديد المنهوكين؟ لو امتنع اثنان، أو ثلاثة، أو أربعة، عن الدفاع عن أنفسهم في وجهٍ واحد، لكان ذلك أمراً غريباً غير أنه ممكن، ويحقّ لنا القول إنهم يفتقرون إلى الشجاعة؛ لكن إذا احتمل مئة، أو ألف، طغيان واحد، أفلا يقال إنهم لا يريدون، وليس لا يجرؤون، الانقضاض عليه، فما ذلك بجُبن بل احتقار له واستخفاف به؟ أما أن نرى، لا مئة رجل، ولا ألفاً، بل مئة بلد، وألف مدينة، ومليون إنسان، لا يهاجمون واحداً لا يلقى منه أفضلهم إلا معاملة القنّ والعبد، فكيف نسمّي ذلك؟ أهو جُبن؟

= يحلق لنذر. أتى الفلسطينيون إليه ليلاً وجزّوا شعره وأوثقوه بسلاسل وسملوا عينيه، ثم أدخلوه إلى بيت في وسطه عمودان ليحتفلوا بأسره فطلب أن يدنوه من العمودين فلما استند إليهما زعزعهما فانهار البيت عليه وعلى من فيه فماتوا جميعاً. (المترجم)

والحال أن في كل رذيلة حداً لا يمكن تجاوزه: قد يخشى اثنان واحداً، وربما خافه عشرة، لكن مليون رجل، وألف مدينة، إن لم يقاوموا واحداً، فما ذلك بجبن، فالجبنُ لا يبلغ بهم هذا الحد، كما أن صفة الشجاعة لا تنطبق على رجلٍ واحدٍ تسلّق حصناً، أو هاجم جيشاً، أو غزا مملكةً! فأية رذيلة مخيفة هذه، التي لا تستحق أن توصف بالجبن، ولا تجد لها اسماً مهما بلغ من الحقارة، والتي تُنكر الطبيعة صُنْعَها وتأبى اللغة أن تسمّيها؟

فلنضعْ خمسين ألف رجلٍ شاكّيّ السلاح في جانب، ونضع مثلهم في جانب آخر؛ ولنصفّهم للمعركة، وليبدأوا القتال، بعضهم أحرار يقاتلون للحفاظ على حريتهم، وبعضهم الآخر يقاتلون لكي ينتزعوا منهم حريتهم، لمن يُكتب النصر على سبيل التخمين؟ أيّ الفريقين يُعتقد أنه الأكثر جرأةً في خوض المعركة: أولئك الذين يأملون أن يسفر جهدهم عن احتفاظهم بحريتهم أم الذين لا يمكن أن يتوقعوا الحصول على مكافأة جرّاء ما يكيلونه من ضربات وما يتلقونه منها إلا استعباد الغير؟ بعضهم

يضعون نُصبَ أعينهم السعادة التي نعموا بها في الماضي ويتطلعون إلى استمرارها في المستقبل؛ ولا يعبأون بالوقت القصير الذي تستغرقه المعركة بقدر ما يفكرون في ما قد يعانونه هم وأطفالهم وذرّيتهم إلى الأبد إذا لم يخرجوا منتصرين من المعركة. أما الآخرون فليس لديهم ما يحثهم على القتال إلا قدر ضئيل من الجشع، الذي سرعان ما يضمحلّ أمام الخطر، ولا يمكن لهذا الجشع أن يبلغ من الاحتدام حدّاً لا تخمده قطرةٌ من الدماء التي تسيل من جراحهم.

في المعارك المشهورة التي خاضها ميلتيادس[1] (ماراثون) وليونيداس[2] (ثرموبيلوس) وثميستوكلس

١ Miltiadês ميلتيادس (٥٤٠–٤٨٩ ق.م) قائد عسكري أثيني من كبار القادة اشتهر بخططه ومناوراته الحربية. انتُخب واحداً من عشرة قادة لمواجهة الجيش الفارسي الغازي. لعب دوراً بارزاً في معركة ماراثون (٤٩٠ ق.م) التي انتصر فيها الجيش اليوناني على الجيش الفارسي بقيادة داريوس. لكن نهايته كانت مأساوية إذ اتهم بالخيانة وحُكم عليه بغرامة كبيرة عجز عن دفعها فمات في السجن متأثراً بجراح كان قد أصيب بها في معركة باروس. (المترجم)

٢ Léonidas، ليونيداس (٥٤٠–٤٨٠ ق.م) ملك إسبرطي، من أبطال المعركة التي جرت بين اليونانيين والفرس عند ممر ثرموبيلوس =

(سالامين)[1] منذ ألفَي سنة، ولكنها لا تزال حيّةً في بطون الكتب وذاكرة الناس كأنما هي بنت الأمس، تلك المعارك التي دارت رحاها في بلاد الإغريق ومن أجلهم، ولتكون مثلاً يحتذى به في العالم أجمع، مَن تظن أنه أعطى الإغريق، وهم آنذاك قِلّة، الشجاعة، إن لم نقل المقدرة، على الصمود أمام أساطيل غطت سطح البحر لكثرتها، وعلى إلحاق الهزيمة بأمم كثيرة وافرة العدد حتى أن كتيبة الإغريق كلها تكاد لا تكفي لتزويد جيوش الأعداء بالقادة ليس إلا. ما الذي مكّنهم من ذلك في تلك الأيام المجيدة لولا أن المعركة لم تكن ضد الفرس بقدر ما كانت انتصار الحرية على الهيمنة والاستعباد.

= الساحلي في اليونان. كان ليونيداس على رأس قوة من الجنود الإسبرطيين قوامها ٣٠٠ رجل اشتهروا بالشجاعة والجلد. قاوموا الجيش الفارسي بقيادة الملك خشايا رشا الأول أثناء عبوره الممر وقُتِلوا جميعهم ومعهم ليونيداس. (المترجم)

١ Themistocles ثميستوكلس (٥٢٤-٤٥٩ ق.م) سياسي وقائد عسكري في البر والبحر. كان شجاعاً داهية، مخادعاً وماهراً في الحرب والسياسة. قاد مع أوريبيادس الأسطول اليوناني في معركة سالامين (٤٨٠ ق.م) التي انتصر فيها اليونانيون على الأسطول الفارسي. (المترجم)

إن المرء ليدهش من سماع الأحاديث عن البسالة التي تملأ بها الحرية أفئدة المدافعين عنها؛ غير أن ما يحدث في جميع البلدان، كأنْ يُذِلَّ رجلٌ واحد مئة ألف إنسان كل يوم، مَن كان ليصدِّقه إن سمع عنه ولم يرَه بأُمِّ العين؟ وإذا كان هذا الإذلال لا يحدث إلا في بلاد أجنبية وأراضٍ نائية، فمن ذا الذي لا يظن بأن ما يقال في هذا الصدد ما هو إلا كذب وتلفيق لا يمتّ إلى الحقيقة بصلة؟

ثم إن هذا الطاغية ما من حاجة إلى محاربته وهزيمته؛ فهو مهزوم من تلقاء ذاته، إنْ لم ترضَ البلاد باستعباده لها، كما لا يتعيّن انتزاع شيء منه، بل يكفي الامتناع عن إعطائه أي شيء. وما من داعٍ لأن تجهد البلاد نفسها لتفعل شيئاً لمصلحتها، شريطة أنْ لا تفعل شيئاً ضد مصلحتها. فالشعوب إذاً هي التي تُسلس القياد لمضطهدها لأنها لو كفّت عن خدمته لضمنت خلاصها. إن الشعب هو الذي يَسْترِق نفسه بنفسه، وهو الذي يذبح نفسه بيده، إذ لمّا كان يملك الخيار بين أن يكون عبداً أو يكون حراً، تخلى عن حريته ووضع القيد في عُنقه، ولمّا كان بوسعه

أن يعيش في ظل قوانين جيّدة متمتعاً بحماية الدول، فضّل العيش في ظل القلق والاضطهاد والظلم، لمجرّد إرضاء هذا الطاغية. إن الشعب هو الذي يرضى ببؤسه، لا بل يسعى وراءه. ولو كان استرداد حريته يكلّفه شيئاً لما استعجلتُه قط. ثم ما الذي هو أعزّ على الإنسان من أن يستردّ حقه الطبيعي، وبعبارة أخرى أن يعود إنساناً بعد أن أصبح حيواناً؟ غير أنني وإن كنت لا أطمع منه بمثل هذه الجرأة لا أُجيز له أن يؤثر ما لست أدري من الأمان في عيشٍ بائسٍ على الأمل المؤلم في أن يعيش على هواه. ماذا؟ إن لم يقتضِ الحصول على الحرية إلا الرغبة، وإن لم يتطلّب الأمر سوى مجرّد الإرادة، فهل من أُمّةٍ في العالم تعتبر هذا الثمن باهظاً، وهو أن تتمكن من نيل الحرية بمجرد التمنّي، وتوفّر الإرادة لاستجلاب الخير، الذي ينبغي أن يُدفع ثمنه بالدماء، والذي تغدو الحياة في نظر الشرفاء إن فقدوه كريهةً والموت شافياً. وكما أن نار شرارة صغيرة تصبح كبيرةً وتزداد اشتعالاً كلّما ألقينا فيها من الحطب، فمن دون أن نصبّ عليها الماء لإخمادها، يكفي أن لا نمدّها بالحطب، فلا يبقى

ما تشتعل به فتأكل نفسها بنفسها وتخبو. كذلك الطُغاة، كلّما نهبوا ازدادوا طمعاً وعاثوا فساداً وتخريباً، وكلما أعطوا المزيد زادت خدمة الناس لهم، وازدادوا منعةً وقوةً وإقداماً على الإبادة وتدمير كل شيء. فإن لم يُعطهم الناس شيئاً، ويكفّوا عن طاعتهم، فمن دون قتال وضرب يصبحون عُراة ومهزومين، ولا يعودون شيئاً مذكوراً إلا كغصنٍ بات من دون ماءٍ يغذّي جذعه فجفّ ومات.

إن الجسورين لا يهابون الخطر من أجل تحقيق مآربهم؛ ولا يتردّد الأذكياء في تحمُّل المشقة؛ أما الجبناء والمتراخون فلا يعرفون الصبر على ما يضرّهم والسعي لاكتساب ما ينفعهم ويكتفون بتمنّيه، ويجرّدهم الجُبن من فضيلة المطالبة به؛ كما أن الرغبة في امتلاكه تبقى لديهم بحكم الطبيعة. هاتان الرغبة والإرادة يشترك فيهما العقلاء والمجانين، والشجعان والجبناء، الذين يسعدهم الحصول على كل ما يشتهون. لكنْ ثمة شيء واحد، لا أدري كيف حرمتهم الطبيعة من الرغبة فيه: ألا وهو الحرية، مع أنها تنطوي على خيرٍ كثير ومتعةٍ كبيرة، وإذا ما فُقِدَت تتوالى الشرور وتفقد المنافع التي

تبقى بعدها طعمها ونكهتها بعد أن تفسدها العبودية. إن الحرية وحدها هي التي لا يرغب الناس فيها لا لسبب إلا لأنهم إذا ما رغبوا فيها نالوها؛ كما لو أنهم يرفضون هذا المكسب الجميل لسهولة الحصول عليه.

أيتها الشعوب المسكينة والبائسة والأُمم العنيدة في تشبّثها بما يضرّها والعمياء عمّا فيه خير لها! إنكم تَدَعون أجمل مواردكم وأوضحها تُسْلَب أمام أعينكم، وحقولكم تنهب، وبيوتكم تُسْرَق ويُنهب أثاثها القديم الموروث عن آبائكم؛ إنكم تحيون حياة لا يمكنكم أن تفخروا بأنكم تمتلكون شيئاً فيها، وتجدون، على ما يبدو، سعادةً كبرى في اكتراء أملاككم، وعائلاتكم، وحياتكم الوضيعة. وكل هذا الضرر، وهذا البؤس، وهذا الخراب، لا يأتيكم من قِبل أعدائكم، لا بل يأتيكم على وجه اليقين من ذلك العدو الذي تُعظّمونه أيّما تعظيم، وفي سبيله تهرعون إلى الحرب دونما وجل، ولا تتورّعون عن تعريض أنفسكم للموت من أجل سموّه. إن هذا الذي يُحكِم سيطرته عليكم ليس له سوى عينَين، ويدَين، وجسدٍ واحد، ولا يملك شيئاً

أكثر مما يملكه أقل واحد منكم في مدنكم الكبيرة التي لا تحصى عدداً، إلا ما وهبتموه من القدرة على تدميركم. إذ من أين له بالعيون الكثيرة التي تراقبكم لولا أنكم أعطيتموه إياها؟ وكيف امتلك هذه الأيدي التي يضربكم بها لو لم يأخذها منكم؟ والأقدام التي يجوب بها مدنكم من أين جاء بها لو لم تكن هي أقدامكم؟ كيف تسنّى له أن يستقوي عليكم لو لم تُمكّنوه من ذلك؟ كيف يجرؤ على مهاجمتكم لولا تواطؤكم معه؟ ماذا بوسعه أن يفعل لو لم تكونوا أنتم مَن يأوي اللص الذي يسرقكم وشركاء السجان الذي يقتلكم وخونة أنفسكم؟ تغرسون زرعكم لكي يقتلعه؛ تؤثثون منازلكم وتملأونها لتكون أسلاباً له؛ تربّون بناتكم ليشبع شهوته؛ تغذّون أطفالكم ليكون أفضل ما يصنعه بهم أن يسوقهم إلى حروبه ويقودهم إلى المجزرة، وليجعل منهم وزراء مطامعه ومنفّذي غاياته الانتقامية؛ أنتم تشقون ليرتع هو في مسرّاته ويستغرق في ملذاته الدنيئة. تُضعفون أنفسكم ليزداد قوةً وعزماً على أخذكم بِلجامه. كل هذه المهانات التي قد لا تشعر بها البهائم، أو لا تحتملها،

يمكنكم الخلاص منها لا إن حاولتم ذلك بل لمجرّد الرغبة في هذا الخلاص.

صمِّموا على ألاّ تخدموا بعد الآن وسترون أنفسكم أحراراً. لا أريد منكم أن تدفعوه دفعاً، ولا أن تخلعوه خلعاً، بل كفّوا عن مساعدته فقط ولسوف ترونه ينهار كتمثال ضخم أُزيحت قاعدته فهوى وتحطم.

غير أن الأطباء محقّون إذ ينهون عن مسّ الجراح التي لا تبرأ، وليس من الحكمة أن أعظ في هذا الشأن الشعبَ الذي فقد منذ زمنٍ بعيد كلَّ معرفة، ولأنه ما عاد يشعر بالألم فهذا دليل على أن مرضه مميت. فلنحاولْ إذاً، إن أمكن ذلك، أن نتبيَّن كيف تجذّرت عميقاً هذه الإرادة العنيدة في الإقبال على الخدمة، حتى ليبدو الآن أن حُبّ الحرية نفسه لم يعد طبيعياً.

أولاً، مما لا ريب فيه، على ما أعتقد، أننا لو كنا نعيش بمقتضى ما أعطتنا الطبيعة من حقوق، وبموجب الدروس التي تعلّمنا إياها، لكنا مطيعين للأهل، خاضعين للعقل، ولسنا عبيداً لأحد. أما طاعة الوالدين التي فُطر عليها كلٌّ منا، من دون أن يرشده إليها أحد إلا نداء الطبيعة، فأمرٌ

يشهد عليه كلُّ امرئٍ عن نفسه، وأما العقل، وهل يولد معنا أم لا - وهذه مسألة يناقشها بعمق الأكاديميون وتناولتها جميع المدارس الفلسفية - فلستُ أظن حتى الآن أنني أُجانب الصواب إن قلت: إن في قرارة أنفسنا بذرة طبيعية من العقل إن تعهّدناها بالنصيحة والعُرف الحسن أزهرت في شكلٍ فضيلة، وعلى العكس من ذلك فإنها لا تستطيع في غالب الأحيان أن تصمد في وجه الرذائل الطارئة فتختنق وتموت. غير أن في الطبيعة شيئاً مؤكداً، واضحاً وجلياً، وهو أن هذه الطبيعة، وهي وزيرة الله، وحاضنة البشر، قد صنعتنا جميعاً على هيئة واحدة، وكأنها صبّتنا في القالب ذاته، لكي نتعارف كرفاق، أو بالأحرى كأخوة. وإذا كانت الطبيعة وهي توزّع عطاياها علينا قد أعطت البعض مزايا جسدية أو عقلية أكثر من غيره، وإذا كانت على الرغم من ذلك لم تتركنا في هذا العالم كما لو أننا في حقلٍ مقفل، ولم ترسل إلى هذه الدنيا مَن هم أقوى وأدهى كقطّاع طرق مسلّحين يكمنون في غابة للتنكيل بالضعفاء، بل ينبغي الاعتقاد أنها لمّا أعطت البعض النصيب الأكبر والبعض

الآخر النصيب الأصغر فإنما أرادت أن تفسح المجال للتعاطف الأخوي كيما يظهر حيث يمتلك البعض القدرة على العطاء فيما يحتاج البعض الآخر إلى تلقّيه.

إذاً، لمّا كانت هذه الأم الطيّبة قد أعطتنا جميعاً الأرض كلّها لتكون لنا مسكناً، وأنزلتنا على نحوٍ ما في المنزل نفسه، وأنشأتنا على مثالٍ واحد لكي يستطيع كلٌّ منا أن يرى نفسه ويتعرّف إليها تقريباً في مرآة الآخر، كما أنها وهبتنا جميعاً تلك الهبة الكبرى التي هي الصوت والكلام لكي تزداد تآلفاً وتآخياً، ولكي نوحّد إراداتنا عبر الإعلان المشترك والمتبادل عن أفكارنا، وإذا ما كانت قد سعت بكل الوسائل إلى توثيق عُرى تحالفنا واجتماعنا؛ وإذا ما كانت قد أظهرت في كل شيء أنها لا تريد أن تجعلنا متّحدين كالشخص الواحد بقدر ما أرادت أن نكون جميعاً آحاداً، فينبغي ألاّ يساورنا الشكّ في أننا جميعاً أحرار بطبيعتنا لأننا جميعاً رفاق. ولا يمكن أن يتصور عاقل أن الطبيعة حكمت على بعضنا بالعبودية وهي التي ألّفت بيننا كرفاق.

لكن في الحقيقة لا معنى للجدل في ما إذا كانت

الحرية طبيعية لأننا لا يمكن أن نستعبد أحداً من دون أن نؤذيه، علماً بأن الأذية أكثر شيء مناقض للطبيعة العاقلة. يبقى إذاً أن الحرية طبيعية، وبناءً على هذه الفرضية نفسها، في ما أرى، فإننا لا نولد أحراراً فحسب بل راغبين في الدفاع عن حريتنا أيضاً.

والحال أننا إذا ما ساورنا الشك في ذلك وكنّا من الفساد بحيث لم نعد نعرف مصالحنا ولا رغباتنا الطبيعية، فلا بدّ من أن أمنحكم الشرف الذي تستحقون فأُصْعِد، إذا جاز القول، البهائم الوحشية إلى المنبر لتعلّمَكم ما هي طبيعتكم وما شرط وجودكم. إن البهائم، ولله الحمد، لتصرخ في الناس إن لم يصمّوا آذانهم: "عاشت الحرية" وإن كثيراً منها لينفق حالما يقع أسيراً. وكما يموت السمك ما إن يخرج من الماء، كذلك تترك هي النور ولا ترغب في البقاء بعد أن تفقد حريتها الطبيعية. ولو عرفتِ الحيوانات أشكالاً من التمايز في ما بينها لجعلت من هؤلاء رمزَ نبالتها. أما بقية الحيوانات، من أكبرها إلى أصغرها، إذا ما تمّ اقتناصها فإنها تبدي مقاومةً شرسة تستخدم فيها

المخالب والقرون والمناقير والأقدام معربةً بذلك عن عظيم تقديرها للحرية التي فقدتها. ثم إنها تعطينا بعد ذلك علاماتٍ كثيرةً باديةً للعيان على معرفتها بالمصيبة التي حلّت بها، حتى لنُعجَب إذ نراها تفضّل أن تنفق من الهزال على أن تبقى حية، وأنها لا تستمر في العيش إلا لتأسى على ما فقدته وليس لاستمرائها عبوديتها.

ما الذي يريد أن يقوله الفيل حين يوشك أن يقع في الأسر فيدافع عن نفسه حتى آخر رمق، ثم يغرس فكيه في جذوع الأشجار ويكسر نابَيه، سوى أن رغبته العارمة في البقاء حراً توحي إليه أن يساوم صيّاديه على أن يتركوا له حريته مقابل حصولهم على نابَيه العاجيين متحمّلاً دفع هذه الفدية في سبيل حريته. إننا نشرع في تربية الحصان منذ ولادته لتعويده على الخدمة، على أننا مهما بالغنا في ملاطفته لا نأمن حين نبدأ بترويضه أن ينفر من المهماز ويعضّ الشكيمة كما لو أنه يريد يشهد بذلك على أنه لا يخدمنا راضياً بل لأننا نكرهه على ذلك. ما الذي ينبغي قوله إذاً؟

حتى البقر تئنّ تحت النير
والعصافير تشكو في أقفاصها

كما قلت ذات مرّة أثناء انشغالي بنظم قريضنا الفرنسي (لأنني فيما أكتب إليك يا لونغا[1] العزيز، مازجاً كلامي بأشعاري، التي لا أنشدك إياها أبداً، لا أخشى أن يحملك الرضا الظاهر عنها على جعلي فخوراً بها). وعلى ذلك فجميع الكائنات ذات الشعور تحسّ منذ أن تملكه ببؤس الخضوع وتسعى لنيل الحرية؛ حتى البهائم التي خُلقت لخدمة الإنسان لا يمكنها أن تعتاد الخدمة إلا مبديةً احتجاجها وذلك تعبيراً عن رغبةٍ مضادة. فأيُّ شؤمٍ هذا الذي استطاع أن يُخرج الإنسان عن طبيعته، وهو الكائن الوحيد الذي وُلِد حقاً لكي يعيش حراً، ويُنسيه ذكرى وجوده الأول والرغبة في استرجاعه.

الطغاة ثلاثة أصناف: صنفٌ يحكم لأن الشعب قد انتخبه؛ وصنفٌ انتزع الملك بقوة السلاح؛ وصنفٌ

---

١ إن غيوم دو لور Gullaume de Lure، سيّد لونغا، وسلف دو لا بويَسي في برلمان مدينة بوردو، هو الذي أهدى إليه المؤلّف مقالته العبودية المختارة.

ثالث جاءه الملك بالوراثة.

أما الذين استحقوا الملك بالحرب فنعلم جيداً أنهم يسيرون فيه، كما يقال، سيرهم في أرضٍ مفتوحة. وأما الذين ولِدوا ملوكاً فليسوا أفضل من هؤلاء بوجه عام، لكنهم وقد نشأوا في حضن الطغيان إنما يرضعون مع الحليب طبيعة الطاغية، ويعاملون الشعوب التي يحكمونها كما لو أنهم عبيد لهم بالوراثة، ويتصرّفون في أمور المملكة كما لو أنها ميراثهم كلٌّ بحسب ميله الغالب إما إلى البخل وإما إلى السخاء. وأما مَن قلّده الشعب أمور الدولة فينبغي، على ما يبدو لي، أن يكون احتماله أسهل، ولربما كان كذلك، في اعتقادي، لولا أنه، حالما يرى نفسه مرفوعاً إلى مقامٍ أعلى من الآخرين، يغويه ما لست أدري مما يسمّى العظمة، فيعقد العزم على ألاّ يتحرّك من مكانه أبداً. ثم لا يلبث أن يعمد عادةً إلى منح أبنائه القوة التي أعطاه إياها الشعب. وما أن يأخذ هؤلاء الأبناء بوجهة النظر هذه حتى يحدث هذا الشيء الغريب المتمثل في ارتكابهم كل أصناف الرذائل متفوقين في ذلك على الطغاة الآخرين، ولا سيّما

في قسوتهم، ولا يرون من وسيلة لتثبيت الطغيان الجديد سوى تعزيز العبودية وصرف أذهان رعاياهم عن فكرة الحرية حتى ينسوها على الرغم من قرب عهدهم بها.

والحق أنني أرى بعض الاختلاف بين هؤلاء الطغاة غير أنني لا أرى التمييز بينهم، وذلك أن أسلوبهم في الحكم لا يكاد يختلف وإن تعدّدت طرق استيلائهم على الملك: فالذين انتخبهم الشعب يسوسونه كما لو أنه ثور ينبغي تذليله، والغزاة كما لو أنه غنيمة لهم، والوارثون يفكرون في معاملته معاملة العبيد الذين يمتلكونهم بشكل طبيعي.

لكن إذا اتّفق اليوم أن يولد جيلٌ من الناس جديدٌ، غير معتادين على العبودية، وليسوا مولعين بالحرية، ولا يعرفون أيّاً منهما، ويجهلون حتى اسميهما، وعُرِض عليهم أن يكونوا عبيداً أو أن يعيشوا أحراراً وفقاً للقوانين التي يتفقون عليها، فلا ينبغي الشك في أنهم سيفضّلون اتّباع العقل وحده على خدمة رجلٍ واحد، ما لم يكن هؤلاء هم بنو إسرائيل الذين أقاموا عليهم طاغيةً من دون أن يكونوا مكرهين على ذلك أو محتاجين إليه – إن هذا

الشعب لا أقرأ تاريخه إلا تملّكني غيظٌ شديد حتى لأوشك أن أتجرّد من إنسانيتي فأفرح بما حاق به من ويلات.

لكن الناس جميعاً، ما دام لديهم شيء من الإنسان، لا يستسلمون للعبودية على وجه التحقيق إلا في حالة من اثنتين: إما أن يكونوا مكرهين وإما مخدوعين؛ مكرهين إما بالسلاح الأجنبي مثل إسبرطة[1] أو أثينا[2] اللتين أخضعتهما جيوش الإسكندر[3]، وإما بسيطرة فريق منهم كما جرى في أثينا قبل أن تسقط في يد بيسيستراتوس[4]؛ وبالخديعة

١ Sparte – إسبرطة أو سبارتا: من عواصم اليونان القديمة. تأسست عام ٩٠٠ ق.م عبر تجمّع أربع قرى، واشتهرت بمجتمعها العسكري الذي يربي أبناءه على فنون القتال. شكلت كياناً سياسياً وكانت مدينة دولة. زاحمت مدينة أثينا على السيادة في اليونان وتغلبت عليها (٤٠٤ ق.م).

٢ Athène أثينا. سميت باسم أثينا إلهة الحكمة. تغلبت على الفرس، وأصبحت دولة بحرية وأقوى الدول اليونانية (القرن ٥ ق.م). أضعفتها الحروب ضد إسبرطة. قضى على سيطرتها فيليب المقدوني والد الإسكندر الكبير.

٣ الإسكندر المقدوني (٣٥٦-٣٢٣ ق.م) ابن فيليب ملك مقدونيا. أشهر قائد عسكري في التاريخ. بلغت فتوحاته الهند وقضى على الإمبراطورية الفارسية.

٤ Pisistrate أو بيسيستراتوس (٦٠٠-٥٢٨ ق.م) طاغية أثينا (٥٦٠ ق.م). أحيا التجارة وشجع الآداب والفنون. رجل دولة وقائد عسكري بارع. استولى على السلطة بالحيلة بعد أن احتلّ مسلّحوه =

غالباً ما يفقدون الحرية، وما ذلك بخداع الغير لهم بقدر ما يعود في معظم الأحيان إلى خداع بعضهم بعضاً. هذا ما حلّ بشعب سيراكوز[1]، سيّدة مدن صقلية (قِيل لي إنها تُسمّى اليوم سراغوس)، إذ دهمتهم الحروب فلم يتّخذوا لها أهبتها وحملهم الطيش على رفع ديونيسيوس[2] إلى منصب الطاغية الأول، وأسندوا إليه قيادة الجيش، ولم يدركوا مدى تقويتهم له إلا عندما عاد هذا الماكر منتصراً كما لو أنه انتصر على مواطنيه لا على أعدائه، فرقّى نفسه من قائد عسكري إلى ملك، ومن ملك إلى طاغية.

يصعب على المرء أن يصدِّق كيف أن الشعب متى تم إخضاعه يسارع إلى السقوط فجأةً في هوّة النسيان

= الأكروبول (حصن أثينا على المرتفع الذي يضم هياكل عدة). نُفي مرّتين ثم استدعي إلى أثينا مجدداً. أسّس أسرة طغاة لم يدم حكمها أكثر من ١٧ سنة. (المترجم)

١ Syracuse أو سيراكوزا. مرفأ ومدينة إيطالية في شرق صقلية على البحر الأيوني. كانت أهم مدن صقلية قديماً. استولى عليها العرب (٨٧٥م) وتعرف عندهم باسم سرقوسة.

٢ Denys أو ديونيسوس الأول. طاغية سيراكوزا (٤٠٥-٣٦٧ ق.م). طرد القرطاجيين. نُفي عام ٣٥٦ ق.م ثم عاد إلى الحكم ونُفي مجدداً (٣٤٤ ق.م).

العميقة لحريته حتى ليمتنع أن يستيقظ لاستعادتها، ويُقبل على الخدمة بحرية وتلقائية حتى ليظن مَن يراه أنه لم يخسر حريته بل ربح عبوديته.

صحيح أن الناس في البداية يخدمون مكرهين ومقهورين بالقوة، غير أن الذين يأتون بعدهم، ولم يسبق لهم قط أن ذاقوا طعم الحرية ولا يعرفون ما هي، فيخدمون غير آسفين ويقومون طوعاً بما قام به أسلافهم قسراً. ذلك لأن الناس الذين ولدوا مغلولي الأعناق، وقد تغذوا ونشأوا في العبودية من دون أن ينظروا إلى أبعد من ذلك، يقنعون بالعيش كما ولدوا، ولا يخطر على بالهم أبداً أن يروا خيراً أو حقاً آخر غير ما وجدوا أنفسهم عليه، ويعتبرون الوضع الذي ولدوا فيه شأناً طبيعياً. ومع ذلك ما من وريث مهما بلغ من التفريط واللامبالاة إلا ألقى نظرةً في بعض الأحيان على سجلّات أبيه ليرى إن كان قد حصل على جميع حقوق الوراثة أو لحِق به أو بسلفه حيف. غير أن العادة، التي لا شك في أن لَها تأثيراً كبيراً علينا في سائر المجالات، لا تتبدّى قوتها في أي مكان كما تتبدّى في تلقيننا الخدمة

و – مثلما قيل عن ميثريدات[1] الذي اعتاد شرب السمّ حتى ألفه – لكي تعلّمنا كيف نبتلع سُمّ العبودية من دون أن نجد طعمها مراً.

لا يمكن إنكار النصيب الكبير الذي يعود إلى طبيعتنا في دفعنا إلى السير في الاتجاه الذي تريد، وأن نقول هذا خير وهذا شر بفطرتنا؛ لكن ينبغي مع ذلك الاعتراف بأن سلطتها علينا أقل من سلطة العادة، لأن الاستعداد الطبيعي مهما كان حسناً يضمحلّ ما لم نتعهده بالرعاية، أما التربية فتشكّلنا على طريقتها على الرغم من الطبيعة. وبذور الخير التي زرعتها فينا الطبيعة هي من الضآلة وضعف التأثير بحيث لا يمكنها أن تحتمل أقل تنافر مع التربية المضادة، وهي لا تتغذى بالسهولة التي تفسد بها وتتفتت وتغنى، مثلها مثل الأشجار المثمرة التي

[1] Mithridate أو ميثريداتس: ملك البنط (من عام ١٢٣ إلى عام ٦٣ ق. م) لقب بميثريداس العظيم، خاض حروباً كثيرة ضد روما إلى أن وقع في الأسر. كان يخاف أن يموت مسموماً فتدرب منذ صباه على شرب السم بجرعات صغيرة ويومياً إلى أن اكتسب المناعة ضدّ السمّ. عندما وقع في أسر الرومان حاول الانتحار بالسمّ لكنه فشل بسبب المناعة التي اكتسبها. مملكة البنط مملكة من أصل فارسي كانت تقع على الساحل الجنوبي للبحر الأسود شمال الأناضول. (المترجم)

لكلٍّ منها طبيعتها الخاصة إن تُركت على حالها آتت ثمارها الطبيعية، وإن أخرجت عن طبيعتها فإنها تأتي بثمار أخرى غريبة ليست من ثمارها بحسب النوع الذي طُعّمت به. ولكل صنفٍ من الأعشاب خاصيته وطبيعته وفرادته، غير أن الجليد والطقس والتربة، أو يد البستانيّ، تضيف إليه أو تُنقص كثيراً من أسباب نموّه، والنبتة التي تُرى في مكان يتعذّر التعرّف إليها في مكانٍ آخر.

لو أنّ رجلاً من أهل البندقية - وهم فئة قليلة من الناس ينعمون بالحرية حتى أن أقلهم شأناً يرفض أن يكون ملكاً على الجميع، ولِدوا على ألاّ يكون لديهم أي طموح آخر غير التنافس في أيّهم أحسن نظراً في الحفاظ على الحرية: هكذا تربّوا وهُيّئوا منذ المهد على ألاّ يرتضوا بكل مباهج الدنيا بديلاً من فقدان ذرّة من حريتهم - أقول: لو إن هذا الرجل توجّه، بعد أن رأى مدى تعلّق أهل البندقية بالحرية، إلى أراضي مَن نُسمّيه السلطان الأعظم [سلطان الإمبراطورية العثمانية] ورأى هناك أناساً لا يولدون إلا رغبةً في خدمته، ويضحون

بحياتهم للحفاظ على قوته، أيظن ذلك الرجل أن أهل البندقية ورعايا السلطان خُلقوا من طينة واحدة، أم يخال على الأرجح أنه خرج من مدينةٍ يسكنها البشر ودخل زريبةً للبهائم؟

يُروى أن ليكورغ[1]، مشرّع إسبرطة، كان قد ربّى كلبين شقيقين، رضعا من ثدي واحد، فسمَّن أحدَهما في المطبخ، وترك الآخرَ يجري في الحقول على صوت البوق في الصيد. ولما أراد أن يبرهن لشعب لاسيديمونيا[2] أنّ الناس هم على ما يُربّون عليه وضع الكلبين في وسط السوق ووضع بينهما طبق حساء وأرنباً برياً، فجرى أحدهما نحو الطبق والآخر وراء الأرنب "ومع ذلك، قال، فهما شقيقان". هكذا

١ Lycurgue أو ليكورغس (القرن ١٩ ق.م) مشرّع إسبرطة الأسطوري الذي حوّلها إلى مجتمع عسكري وفقاً لعرّافة معبد أبولو في مدينة دلفي. قامت إصلاحاته على ثلاث فضائل هي: المساواة بين المواطنين، واللياقة العسكرية، والصرامة. (المترجم)

٢ Lacédémonia أو Laconia لاكونيا. إحدى مقاطعات اليونان التاريخية. تقع أقصى جنوب غرب شبه جزيرة بيلونيز. عاصمتها مدينة إسبرطة. (المترجم)

أفلح هذا الرجل بفضل قوانينه وأنظمته في تربية أهل لاسيديمونيا حتى أن كلاً منهم يفضّل أن يلقى حتفه ألف مرّة على أن يعترف بسيدٍ آخر غير القانون والعقل.

يسرّني أن أستعيد حديثاً جرى في سالف الزمن بين أحد المقربين إلى أكسركس[1] ملك الفُرس واثنين من اللاسيديمونيين. عندما بدأ أكسركس يعدّ العدّة لغزو بلاد اليونان بعث رسله إلى المدن اليونانية يطلبون من أهلها الماء والتراب: وكانت هذه طريقة الفُرس لدعوة المدن إلى الاستسلام لهم. غير أن الملك الفارسي لم يرسل أحداً إلى أثينا وإسبرطة لأن الرسولين اللذين كان والده داريوس قد بعثهما إلى هاتين المدينتين أُلقيَ أحدهما في حُفرة والآخر في بئر، وقيل لهما إن بإمكانهما أن يأخذا ما يريدان من الماء والتراب إلى ملكهما. كان هؤلاء القوم لا يحتملون أي مسّ بحريتهم ولو بأقل كلمة.

١ Xerxès أو أحشويرش الأول (٥١٩-٤٦٦ ق.م) اختير خلفاً لوالده داريوس الأول. حكم بلاد فارس من ٤٨٥ إلى ٤٦٥ ق.م. هو الملك الرابع في سلالة الأخمينيين. أخضع مصر. اجتاح بلاد اليونان ودمّر أثينا. هزمه ثميستوكلس في معركة سلامينا البحرية (٤٨٠ ق.م). اغتيل عام ٤٦٦ ق.م. خلفه ابنه ارتحشِشتا الأول. (المترجم)

غير أن الإسبرطيين وقد وجدوا أنهم يستجلبون عليهم غضب الآلهة، ولا سيما تالثيبي إله رُسل الحرب، ارتأوا أن يبعثوا إلى أكسركس اثنين من مواطنيهم لكي يمثلا بين يديه ويفعل بهما ما يشاء انتقاماً لرسولَي أبيه المقتولين. وقد تطوّع لدفع هذا الثمن اثنان من الإسبرطيين أحدهما يدعى سبرثيوس والآخر بولس. ولمّا كانا في الطريق وصلا إلى قصر رجل فارسي يدعى إندارن، كان قائد جيوش الملك في جميع مدن آسيا الواقعة على ساحل البحر، فأكرمهما واستقبلهما أحسن استقبال، وفيما هم يتجاذبون أطراف الحديث سألهما لماذا يرفضان إلى هذا الحد صداقة الملك؟ وقال: "انظرا إليَّ أيها الإسبارطيان تعرفا كيف يُكرم الملك أولئك الذين يخدمونه، واعلما أنكما إذا ما أصبحتما من أتباعه فسوف يفعل لكما من المكرمة ما فعله لي، فإذا دخلتما في طاعته وعرفكما فلن يعود أيٌّ منكما إلا وقد أصبح أميراً على مدينة من مدن اليونان". فأجابه الإسبارطيان: "أنت يا إندارن لم تُحسن نصحنا في هذا الأمر، لأن النعمة التي تعدنا بها خبرتها أنت، لكنك لا تعرف النعمة التي نتمتع نحن

بها. لقد حظيت بإنعام الملك عليك غير أنك لا تعرف شيئاً عن الحرية ولم تذق طعمها اللذيذ، ولو أنك ذقتها لنصحتنا بالدفاع عنها لا بالرمح والدرع فحسب بل بالأسنان والأظفار أيضاً".

وحده الإسبارطي كان يقول ما ينبغي قوله، غير أن كلاً منهم تكلم وفقاً لما نشأ عليه، فالفارسي لا يمكن أن يأسف على الحرية التي لم يمتلكها يوماً، ولا يسع الإسبرطي أن يحتمل العبودية بعد أن ذاق طعم الحرية.

كان كاتون الأتيكي[1]، وهو طفل تحت الوصاية، يتردّد في معظم الأحيان على منزل الدكتاتور سيلاّ[2] إذ لم يكن يوصد في وجهه باب لعراقة أسرته وعلوّ مقامها وللقرابة

١ Caton d'Utique أو كاتون الأصغر (٩٥-٤٦ ق.م) تمييزاً له عن جده كاتون الأكبر. سياسي روماني عاش في الفترة الأخيرة من الحكم الجمهوري في روما. اشتهر بالخطابة ومحاربة الفساد الذي كان سائداً في عصره. عرف بعدائه الشديد والطويل ليوليوس قيصر الذي قاده إلى حتفه، إذ لجأ كاتون إلى أوتيك، وهي تونس الحالية، حيث انتحر. (المترجم)

٢ Sylla (١٣٩-٧٨ ق.م) قائد وقنصل وديكتاتور روماني، واجه ماريوس في حرب أهلية رهيبة. (المترجم)

التي تجمعه بسيلا، وكان معلّمه يرافقه في تلك الزيارات على الدوام كما جرت العادة مع أبناء الأسر العريقة.

ولقد رأى ما كان يجري في قصر سيلاّ في حضوره أو بناءً على أوامره حيث يُسجن بعض الناس ويُدان آخرون، فيحكم بالنفي على هذا ويُشنق ذاك؛ ويطالب بعضهم بمصادرة أملاك مواطن فيما يطلب غيره رأسه، وعلى وجه الإجمال لم تكن الأمور هناك تجري كما ينبغي أن تجري لدى مأمور معيّن من قِبل المدينة بل لدى طاغية مستبدّ بالشعب. ولم يكن ذلك المكان دار قضاء يحكم بالعدل وإنما هو مصنع يُنتج الطغيان. عندئذٍ قال الفتى لمعلّمه: "ألا تعطيني خنجراً أخفيه تحت ردائي؟ فأنا أدخل كثيراً إلى غرفة نوم سيلاّ قبل أن يستيقظ، وإن لساعدي من القوة ما يكفي لتخليص المدينة منه".

هذه على وجه اليقين كلمة تخص كاتون حقاً. تلك كانت بداية تليق بموت هذه الشخصية البارزة، ومع ذلك فلو لم يُذكر اسمه، ولا بلاده، واكتُفي بسرد الواقعة كما هي، لتحدثت عن نفسها بنفسها، ولسوف

يُعرف منها على أي حال أنه كان رجلاً رومانياً، ولِد في أحضان روما، عندما كانت حرّة.

علامَ أسوق هذا الكلام؟ طبعاً، ليس لأنني أخال أن للبلد أو للتربة يداً في هذا الأمر، فالعبودية مريرة في كل بلد وتربة، أما الحرية فمستحبّة؛ ولكن لأنني أرى أن أولئك الذين ولدوا والقيد في أعناقهم هم أهل للرثاء، أو للمعذرة، أو للغفران، لأنهم لا يرون ضيراً في أن يكونوا عبيداً ما داموا لم يسبق لهم أن رأوا ولو ظلاً للحرية، ولم يسمعوا بها قط.

لو كان ثمة بلاد، كما قال هوميروس، كبلاد السمّريين[1]، حيث تشرق الشمس بخلاف شروقها عندنا، وبعد أن تغمرهم بنورها مدة ستة أشهر متوالية تعود فتغرقهم في ظلمة يظلون فيها هاجعين طوال النصف الآخر من السنة، فإن الذين يولدون في ذلك

١ Cimmériens شعب أسطوري ذكره هوميروس في ملحمته الأوديسة حيث يصل عوليس إلى بلاد السمّريين في أقصى المحيط العميق والتي لا تنفذ إليها أشعة الشمس طوال ستة أشهر متوالية وتغرق في الظلام مدة ستة أشهر أخرى. وفي ذلك الليل الطويل يصل عوليس إلى مملكة الموتى. (المترجم)

الليل الطويل، ولم يسمعوا أحداً يتحدث عن الضوء، أفنُعجَب من إيلافهم الظلمات التي ولِدوا فيها من دون أن تراودهم الرغبة في رؤية النور ما داموا لم يروا نهاراً قط؟ لا يأسف أحدنا على شيء لم يملكه قط، فالأسف لا يكون إلا بعد المسرّة، ولا تأتي ذكرى الفرح إلا بعد ترح. إن طبيعة الإنسان أن يكون حراً وأن يرغب في أن يكون حراً، غير أن من طبيعته أيضاً أن يتطبّع بما تربّى عليه.

لنقل إذن إن ما نشأ عليه الإنسان واعتاده يبدو له كالشيء الطبيعي، ولكنّ الشيء الفطري عنده هو ما تدعوه إليه طبيعته البسيطة والسليمة. من أجل ذلك كانت العادة هي السبب الأول للعبودية المختارة. كالجياد الجوامح التي تعض الشكيمة في البداية ثم تعود فتلهو بها، وبعد أن كانت ترفس السرج صارت تتباهى الآن بعُدّة ركوبها وتختال تحتها، وتقول إنها كانت مسترقّة على الدوام، وأن آباءها عاشت هكذا؛ وتظن أنها وُجِدت لتحتمل العناء، وتضرب الأمثال لتقتنع بذلك، وبمرور الوقت تبرِّر سيطرة مضطهديها عليها. والحق أن مَرّ السنوات لا

يعطي أبداً الحق في الإيذاء بل يضاعف الإجحاف. وعلى الدوام يوجد أفراد أفضل استعداداً بالولادة يستشعرون ثقل النير ولا يتمالكون أن يحاولوا نزعه، ولا يألفون العبودية قط، ولا يسعهم، مثلهم مثل عوليس الذي كان يجوب البلدان والبحار لعله يرى الدخان الذي يتصاعد من منزله، أن يكفّوا عن التفكير في امتيازاتهم الطبيعية، وعن تذكّر مَن كانوا قبلهم، وكيف كان وضعهم الأول. هؤلاء، وقد امتلكوا قوة الإدراك وبُعد النظر، لا يكتفون بالنظر إلى ما بين أقدامهم، كما تفعل الدهماء، ولا يلتفتون إلى الخلف، ولا يستذكرون حوادث الماضي ليحكموا في ضوئها على المستقبل ويستقرئوا ما يحدث في الوقت الحاضر. هؤلاء لو اضمحلّت الحرية عن وجه الأرض ولم يبقَ منها أثر لتخيّلوها وأحسّوا بها في عقولهم، والتذّوا بتذوّقها، ولما استساغوا طعم العبودية مهما زُيّنَت لهم.

هذا ما أدركه سلطان الترك كل الإدراك: أدرك أن الكُتب والعقيدة هما أكثر ما يعطي الناس الإحساس والفهم ليتعارفوا ويكرهوا الطغيان. أعني بذلك أنّ

أراضيه خالية من أهل العلم والمعرفة، وأنه لا يطلبهم.

والحال أن حماسة وأماني أولئك الذين أخلصوا للحرية كل الإخلاص على الرغم من مرّ الزمن تبقى من دون فعالية بوجه عام، مهما كثر عددهم، لانعدام التواصل في ما بينهم. فتحت سلطان الطاغية هم محرومون من كل حرية، حرية العمل، وحرية التعبير، وحتى حرية التفكير تقريباً. وعلى ذلك فإن مومس[١]، الإله الساخر، لم يبالغ في التهكّم عندما رأى الإنسان الذي صنعه فولكان[٢] فسأله أن يجعل له نافذة على القلب كيما تُرى أفكاره من خلالها. وقِيل إن بروتوس[٣]، وكاسيوس[٤]، عندما شرعا في تحرير روما،

١ Momus إله الضحك والغناء في الميثولوجيا، مرادف للسخرية هنا.

٢ Volcain إله النار والحديد والبراكين في الميثولوجيا الرومانية. (المترجم)

٣ Brutus ابن أخت كاتون الأوتيكي، وابن يوليوس قيصر بالتبني. اشترك مع كاسيوس في مقتل قيصر (٤٤ ق.م)، ثم هرب إلى مقدونيا حيث انتصر عليه أنطونيوس وأوكتافيوس. انتحر بعد هزيمته (٤٢ ق.م) وانتحرت زوجته بورسيا عندما علمت بموته. (المترجم)

٤ Cassius كان الرأس المدبّر لاغتيال يوليوس قيصر في مجلس الشيوخ وهو الذي أقنع بروتوس بالمشاركة في عملية الاغتيال.

أو العالم بالأحرى، لم يرغبا في أن يشارك في الأمر شيشرون[1]، هذا المتحمس الغيور الذي لا مثيل له على المصلحة العامة، زاعمين أن شجاعته أضعف من أن تُمكّنه من القيام بهذا العمل العظيم. كانا يثقان بإرادته لكنهما لم يكونا مطمئنين إلى جرأته. غير أن من يريد أن يستعرض وقائع الماضي والسجلاّت القديمة سوف يجد القليل من أولئك الذين عندما رأوا بلادهم تُساء معاملتها وتقبض عليها أيد جائرة وشرعوا في تحريرها بنية صافية، مخلصة وصادقة، إلا كُتب لهم النجاح، وساعدتهم الحرية في إثبات حضورها.

١ Cicéron شيشرون أو بالإيطالية ماركوس توليوس كيكرو (١٠٦–٤٣ ق.م) سياسي ورجل دولة. أشهر خطيب ومحام في روما. تقلّد منصب قنصل (٦٣ ق.م). نُفي (٥٨ ق.م) لأنه عَمل على إعدام أنصار كاتيليا من دون محاكمة. أعاده أنصاره بعد سنة، وأعادت الدولة ترميم منزله وأملاكه المدمرة. لم تكن له يد في اغتيال قيصر (٤٤ ق.م) لأن المتآمرين جعلوه خارج المشاركة. عارض حكم الثلاثي قيصر – بومبي – كراكوس. وعارض أنطونيوس بشدة ولقي مصرعه جرّاء ذلك. (المترجم)

كان هارموديوس، وأرسطجيتون[1]، وثراسيبول[2]، يمتلكون من التفكير الفاضل ما يجعلهم قادرين على تنفيذه بنجاح. وفي مثل هذه الحالة لا يخذل الحظ الإرادة الطيبة. لقد ألغى بروتوس الأصغر وكاسيوس (قاتلا قيصر) العبودية لحسن الحظ لكنهما بعد أن استرجعا الحرية خسرا حياتهما على نحو لا يعيبهما (وأي تجديف أن يُعاب هذان الرجلان لا في موتهما ولا في حياتهما!) لكن أكبر خسارة هي التي مُنيت بها وعانت منها إلى الأبد الجمهورية التي يبدو أنها دُفنت بدفنهما.

---

١ Harmodios وAristogiton هارموديوس وأرسطجيتون: شابان أثينيان تآمرا معاً لاغتيال الطاغيتين هيباس وهيبارك (٥١٤ ق.م) في أثناء مشاركتهما في مواكب الاحتفال بأعياد أثينا. نجحا في قتل أقل الطاغيتين أهمية وهو هيبارك. وقُتِل هارموديوس على الفور. أما شريكه أرسطجيتون فألقي القبض عليه ثم مات تحت التعذيب بأمر الطاغية هيباس. اعتُبر الشابان شهيدين في سبيل الحرية. (المترجم)

٢ Thrasybule قائد عسكري وسياسي أثيني (ت ٣٨٨ ق.م). تزعّم التمرّد الذي قام به الجيش الأثيني وأطاح بحكم الأربع مئة (حكم مجلس الشيوخ المؤلف من ٤٠٠ عضو يمثلون عشر قبائل). شارك في انتصار الأسطول الأثيني في بحر إيجه (٤٠٤). نُفي إلى طيبة منفياً حيث تزعم الديمقراطيين المنفيين وعاد فأسقط حكومة الطغاة الثلاثين. (المترجم)

ثم إن المحاولات التي جرت بعد ذلك ضد الأباطرة الرومان كانت من صنع رجالٍ ذوي طموح لا يؤسف على ما حاق بهم من أذى لأن غايتهم لم تكن خلع التاج بل تغيير حامله مدّعين طرد الطاغية مع الإبقاء على الطغيان. هؤلاء ما كنت لأرغب في نجاحهم ويسرّني أنهم ضربوا بصنيعهم المثل على أنه لا ينبغي استخدام اسم الحرية المقدّس لتحقيق غاية سيئة.

ولكن، بالعودة إلى موضوعنا الذي كدت أنساه، أرى أن السبب الأول لقبول الناس بالعبودية طواعيةً هو أنهم يولدون مستعبدين وينشأون على ذلك. وهذا السبب يُضاف إليه سبب آخر وهو سهولة تحوّل الناس تحت وطأة الطغاة إلى جبناء ومخنّثين. وإني لأغبط أبا الطبّ أبقراط[1] الذي نبّه إلى ذلك وذكره في أحد كتبه الذي يحدّد فيه الأمراض. كان هذا الرجل الرفيع الشأن مقداماً

[1] Hippocrate هيبوقراط أو أبقراط (٤٦٠–٣٧٠ ق.م) أعظم طبيب يوناني. يلقب بأبي الطب. خلّص الطب من الفلسفة والطقوس السحرية. له مؤلفات عدة في الطب وهو أول من ألّف في هذا المجال. صاحب فكرة القسم الشهير المعروف بقسم أبقراط الذي يقسمه الأطباء قبل مزاولة مهنة الطب. (المترجم)

في سائر الأمور، وقد برهن عن شجاعته أحسن برهان عندما أراد ملك الفُرس أن يستميله بالهدايا والعروض فأجابه بصراحة قائلاً: إن ضميره ليؤنّبه لو انشغل بعلاج الأجانب الذين يريدون أن يقتلوا اليونانيين، أو خدم بفنه الملك الذي يسعى إلى إخضاع بلادهم. ولا تزال الرسالة التي بعث بها إلى ملك الفرس ماثلة في كتاباته إلى اليوم، وتشهد إلى الأبد على طيبته ونُبل طبيعته.

لا ريب في أن الحرية إذا ذهبت تذهب معها الشجاعة. وذلك أن مَن ألفوا الخضوع لا قِبلَ لهم بالحرب ولا همّة، يساقون إليها سوقاً وكأنهم مقيدون ومخدّرون، يؤدّون واجباً لا بدّ لهم من القيام به، ولا تغلي في صدورهم حُميّا الحرية التي تزدري الخطر وتُرغّب المرء في أن يموت بين رفاقه موتاً يكسبه الشرف والمجد. غير أن المستعبدين، علاوةً على فقدانهم هذه الشجاعة القتالية، يفقدون أيضاً الحيوية في كل شيء، وقلوبهم ضعيفة ورخوة عاجزة عن كل أمرٍ عظيم. وهذا ما يعلمه الطغاة جيداً، فما أن يروهم يميلون هذا الميل حتى يساعدوهم على أن يزدادوا خوراً.

لقد ألّف كسينوفون[1]، المؤرّخ الرصين المعدود في الطبقة الأولى من المؤرخين اليونانيين، كتاباً تخيّل فيه حواراً جرى بين سيمونيد[2] وهيارون[3] طاغية سيراكوزا موضوعه بؤس الطاغية، وهذا الكتاب يزخر بالانتقادات الجدّية، التي تتسّم في رأيي بكثير من اللطف إلى أقصى حد ممكن (لو أن الطغاة في كافة العصور وضعوا هذا الكتاب نُصب أعينهم وجعلوه كالمرآة لهم لتبيَّنوا فيه عيوبهم وخجلوا من قبح أعمالهم، إن شاء الله!). في

---

١ Xénophon (٤٢٧–٣٥٥ ق.م) مؤرّخ وقائد أثيني. كان من تلاميذ سقراط. حارب الفرس مع أثينا ثم مع إسبرطة. اشتهر بكتابه الرحلة أو أناباز وفيه يصف تراجعه على رأس عشرة آلاف مقاتل من الفرات إلى البحر الأسود بعد معركة كوكسا التي انتصر فيها الملك الفارسي أرتحششتا الثاني على أخيه الأصغر قورش (٤٠١ ق.م) وقتله. كان جيش قورش من المرتزقة اليونانيين بقيادة كسينوفون الذي وصف مسيرة تقهقره في كتابه أناباز. (المترجم)

٢ Simonide أو سيمونيدس (٥٥٦–٤٦٧ ق.م) شاعر يوناني. أقام في تسالي بصقلية وفي أثينا. فاز بجائزة عن قصيدة يصف فيها انتصار جيش أثينا في معركة ماراثون. (المترجم)

٣ Hieron طاغية سيراكوزا (من ٤٧٨ إلى ٤٦٦ ق.م) بسط سيطرته على صقلية كلها. رعى الآداب والفنون وجمع في بلاطه نخبة الكتّاب اليونانيين. (المترجم)

هذا الحوار يشير كسينوفون إلى معاناة الطغاة الذين يجدون أنفسهم مضطرين إلى إيذاء الجميع، والارتياب في الجميع؛ ويقول من بين أمور أخرى إن الملوك الفاسدين يستخدمون الأجانب في الحرب ويدفعون لهم أجورهم، لأنهم لا يجرؤون على وضع السلاح بأيدي رعاياهم الذين آذوهم (هناك ملوك صالحون، حتى من الفرنسيين، شكلوا جيوشاً من أمم أجنبية، في الماضي أكثر من الحاضر، غير أن قصدهم كان شيئاً آخر: فمن أجل سلامة رعاياهم لم يروا بأساً في إنفاق المال حرصاً على أرواحهم؛ وهذا ما قاله، على ما أعتقد، سيبيون[1] الأفريقي الكبير، من أنه يؤثر إنقاذ مواطن واحد على هزيمة مئة من الأعداء) لكن من المؤكد أن الطاغية لا يطمئن أبداً إلى استتباب سلطانه ما لم يصل به الأمر إلى القضاء على آخر رجل ذي

١ Scipion l'Africain (٢٣٥-١٨٣ ق.م) سياسي وقائد عسكري روماني. عُين قنصلاً في إسبانيا أثناء الحرب البونيفية. احتل قرطاجة وانتصر على هنيبعل. لذلك لُقّب بالأفريقي لدى عودته إلى روما حيث استقبل استقبال الفاتحين. (المترجم)

مكانة ونباهة في رعيته. ومن حقنا إذن أن نوجّه إليه التأنيب الذي وجّهه ثيراسون أو تيرانس[1] إلى مروّض الأفيال قائلاً:

أبلغت من الجرأة هذا الحد
لأنك موكل بالبهائم[2]

غير أن هذه الحيلة التي يعمد إليها الطغاة – أي تضليل رعاياهم – لا تتجلّى بأوضح صورها إلا بما فعله كسرى بالليديين بعد أن استولى على عاصمتهم سرديس وأسر ملكهم كريسوس، ذلك الملك الثري جيداً، واقتاده معه إلى بلاده. ثم بلغه أن السرديينيين ثاروا، وكان بوسعه إخضاعهم على وجه السرعة إلا أنه لم يشأ أن يُدمّر مدينة فائقة الجمال ولا أن يتحمل عبء إبقاء

١ Terence (١٩٠–١٥٩ ق.م) مؤلف مسرحي. كان عبداً أفريقياً أعتقه الشيخ ترتيوس لوكانوس وربّاه تربيةً ليبرالية وأدخله في دائرة أصدقائه الأرستقراطيين. Thrason أحد شخصيات مسرحية "الخصيّ" لتيرانس. جندي متبجّح يرافقه تابعه المتطفل غناثون. (المترجم)

٢ من مسرحية "الخصيّ" (الأصل).

حامية كبيرة فيها لحراستها، فخطرت له حيلة ماكرة يحقق بها غايته: أمر بفتح مواخير وحانات للدعارة وشرب الخمور وملاهٍ للألعاب الشعبية، وأصدر مرسوماً يحض السكان على ارتياد تلك الأماكن الموبوءة، فكان له بذلك حامية وفّرت عليه إلى الأبد أن يشهر السيف في وجه الليديين، وانصرف هؤلاء المساكين والبؤساء إلى اللهو والتفنّن في اختراع أنواع الألعاب حتى أن اللاتينيين اشتقوا من اسمهم الكلمة التي يعنون بها التسلية أو اللهو وهي لودي [لودونس] وكأنهم يقولون ليدي[1].

إن الطغاة لم يصرّحوا جميعاً بأنهم يريدون تخنيث رعاياهم غير أن ما أمر به الملك الفارسي بشكل صريح وحازم سعى غالبيتهم إلى تحقيقه خفية.

والحقيقة أن العامة، وهم القسم الأعظم من سكان المدن، من طبعهم الارتياب في من يحبّهم، وهم

---

١ Ludus لودوس. هذه الكلمة مشتقة في الحقيقة من كلمة لوادوس Loidos في اللغة الأترورية التي كانت مستعملة في مقاطعة أتروريا. (الأصل).

سُذّج حيال مَن يخدعهم. ولا تظنّن أن عصفوراً يسهل اقتناصه بالزقزقة، أو سمكة تسارع إلى ابتلاع الطُعم، بأسرع من جميع الشعوب انجذاباً إلى العبودية بأصغر ريشة تُقرّب من فمها، كما يقال، وإنه لأمر مدهش كيف تسارع إلى الانسياق في هذا السبيل بمجرّد دغدغتها.

إن المسارح، والألعاب، والمساخر، والمشاهد، والبهائم الغريبة، والأوسمة، واللوحات وأشياء أخرى من هذا القبيل كانت أشكالاً من الطعوم لإبقاء الشعوب القديمة في فخ العبودية، وثمن حريتها، وأدوات الطغيان. وكان الطغاة القدامى يمتلكون هذه الوسيلة، وهذه الممارسة، وهذه المغريات، لتنويم رعاياهم تحت النير، وكانت الشعوب المخبَّلة، وقد أعجبتها هذه التسالي، واستمتعت بلذة تافهة تمرّر أمام أعينها، تألف الخدمة بسذاجة الأطفال الذين تبهرهم الكتب المصوّرة فيحاولون قراءة حروفها ولكن على نحو أسوأ.

ولقد فطن الطغاة الرومان إلى وسيلة أخرى هي ولائم

العشرات العامة [فرق مدنية] التي يفسدون بها هذه الدهماء التي تتهافت على لذة الفم أكثر من أي شيء آخر، والتي لا يترك أنبهُها وأكثر مَن تصغي لكلامه قصعةَ حسائه لاسترجاع حرية جمهورية أفلاطون. وكان الطغاة يسخون برطل من القمح ونحو أربعة ليترات من النبيذ و"سَسْترْس"[1] واحد، وكم كان من المؤسف عندئذٍ أن يرتفع الهتاف: "يعيش الملك!". وما كان الأغبياء يفطنون إلى أنهم يستعيدون جزءاً مما هو في الأصل لهم وأن الطاغية ما كان ليجود به عليهم لو أنه لم يسلبهم إياه في السابق. وهذا الذي التقط "السَسْترس" اليوم وملأ بطنه حتى التخمة من الوليمة شاكراً لتيروس[2] ونيرون[3] سخاءهما تراه لا ينبس

١ Sesterce: عملة رومانية قديمة. (المترجم)

٢ Tiberius Clauduis Nero = Tibère باللاتينية: تيبريوس كلاوديوس نيرو. إمبراطور روماني (١٤–٣٧م) خلف أباه بالتبني أوغسطس. اشتهر بحكمته السياسية وتنظيمه الإداري. مال في آخر عهده إلى الاستبداد والإرهاب. (المترجم)

٣ Neron، إمبراطور روماني (٥٤–٦٨م) ابن كلاوديوس بالتبني. اتبع في البدء نصائح معلمه سينيكا. ثم طغى. قتل أغريبا أمه وأوكتافيا زوجته. اتهم بأنه أحرق روما (٦٤) ولكنه نسب الحريق إلى المسيحيين =

بنت شفة أكثر مما ينبس به الحجر، ولا يهتز بأكثر من اهتزاز جذع شجرة مقطوع، عندما سيضطرّ غداً إلى ترك أملاكِه لجشع هؤلاء الأباطرة المعظَّمين، وأطفالِه لشبقهم، وحتى دمِه لقساوتهم.

كذلك كان حال العوام على الدوام، يُقبلون على اللذة باسطين أذرعهم بينما تقتضي النزاهة أن يتجنّبوها، ولا يحسّون بالحيف والألم اللذين تقتضي الأمانة أن يشعروا بهما. ولست أرى اليوم أحداً لا يرتجف هلعاً عندما يسمع باسم نيرون، هذا المسخ القبيح والوباء الوبيل الذي اجتاح العالم، ومع ذلك فبعد موت هذا المفسد، هذا الجلاّد، هذا الوحش الضاري، ميتةً أشنع من حياته، حزن عليه الشعب الروماني النبيل أيّما حزن وتذكر ألعابه وولائمه حتى أوشك أن يعلن الحداد عليه - هذا ما كتبه كورنيليوس تاسيت[1] وهو كاتب

= واضطهدهم. أصيب بالخبل في أواخر أيامه. انتحر. (المترجم)

١ Carnelius Tacitus كورنيليوس تاسيتوس (٥٦-١١٧م) مؤرّخ روماني. شغل منصب قنصل في روما (٩٧). عُيّن والياً على آسيا (١١٠-١١٣). اشتهر بالفصاحة. انصرف إلى كتابة التاريخ مركزاً على حقبة الأباطرة الرومان تيبريوس وكلوديوس ونيرون. (المترجم)

جيّد ورصين وموضع ثقة - وليس هذا بمستغرب من هذا الشعب قياساً على التكريم الذي خصّ به يوليوس قيصر[1] بعد موته وهو الذي أبطل القوانين وألغى الحرية، والذي لا أجد فيه مزيّة تستحقّ الذكر، لأن إنسانيته التي كثرت الإشادة بها كانت أشد ضرراً من قسوة أعتى طاغية وجد على وجه الأرض، والحقيقة أن هذه الحلاوة المسمومة التي قدّمها للشعب حلّت له طعمَ العبودية. ومع ذلك فما إن مات حتى هبّ هذا الشعب، الذي لا تزال ولائمه تملأ فمه وعطاياه ماثلةً في ذاكرته، لتكريمه وترميد جثمانه جامعاً لهذه الغاية المقاعد من الساحة العامة لإشعال النار فيها، ثم أقام له نصباً تذكارياً كتب على أعلاه: "إلى أبي الشعب" مظهراً له من التكريم وهو ميت ما لا ينبغي لأي حيّ،

١ Jules Cesar يوليوس قيصر (١٠٠-٤٠ ق.م) من كبار رجال الدولة والقادة في روما والعالم. أول من أطلق على نفسه لقب إمبراطور. ألّف المثلث الأول مع القائدين بومبيوس وكراموس (٦٠ ق.م). انتُخب قنصلاً (٥٩ و٥٦ ق.م). فتح غاليا (٥٨-٥١) وعاد إلى روما حيث فرض حكم الطاغية الواحد. عشق كليوباترا ملكة مصر وأنجب منها ولداً. تآمرت عليه الطبقة الأرستقراطية واغتيل في مجلس الشيوخ. وكان من قتلته بروتوس الذي يقال إنه ابنه غير الشرعي. (المترجم)

ما لم يكن هذا التكريم لقاتليه.

ثم إن الأباطرة الرومان لم ينسوا أن يتخذوا بوجه عام لقب محامي الشعب لما كان لهذه الوظيفة من حُرمة وقداسة، ولأنها مكرّسة بمقتضى القانون للدفاع عن الشعب وحمايته، وبفضل هذا اللقب، وهذه الأداة، يضمنون ثقة الشعب كما لو أن المطلوب سماع الاسم وليس الإحساس بمفاعيله.

وليس طغاة اليوم بأحسن صنعاً. فهؤلاء لا يقترفون شراً - خصوصاً في نتائجه - إلا مهّدوا له ببعض العبارات الجميلة عن المصلحة العامة ورفاهية الجماعة. لأنك، يا لونغا، تعلم علم اليقين الصيغ الجاهزة التي يمكنهم استخدامها لتحسين بلاغتهم وإن لم ينجح معظمهم في ذلك حيث يظهر الكثير من وقاحتهم.

كان ملوك أشور، ومن بعدهم ملوك ميديا، لا يظهرون أمام الملأ إلا بعد مرور بعض الوقت لكي يبعثوا الشك في أذهان العوام إن كان هؤلاء الملوك بشراً أم شيئاً آخر فوق البشر، ويتركوا الناس يتخبطون في هذه التخيّلات التي يمكنهم الحكم عليها عياناً.

هكذا عاشت أُمم كثيرة زمناً طويلاً في ظل هذه الإمبراطورية الأشورية، وقد ألِفَتْ الخدمة مع هذا اللغز، فكانت أكثر إقبالاً على الخدمة لأنها لا تعرف السيد الذي تخدمه ولا إن كان موجوداً حقاً، وتهاب من غير طائل شخصاً لم يُرَ قطّ.

ولم يكن ملوك مصر يظهرون ما لم يحملوا على رؤوسهم هرّاً مرةً أو غصناً مرّةً أخرى أو ناراً، وكانوا يتنكّرون على هذه الشاكلة كالمشعوذين، والغريب أنهم كانوا يبعثون بذلك الاحترام والمهابة لهم في نفوس رعاياهم، في حين أن صنيعهم هذا لا يرى فيه أناس لم يبلغوا هذا الحد من الحماقة والعبودية إلا ملهاة ومسخرة.

ولكم يبعث على الأسى سماع الأحاديث عن الوسائل التي اعتمدها طغاة الأزمان السالفة لتأسيس طغيانهم، وعن الحِيَل التي استخدموها حتى أسلست الدهماء لهم القياد؛ فما إن ينصبوا لها شبكة حتى تقع فيها، وكان خداعهم لها سهلاً في كل أوان، وكان نجاحهم في خداعها أكبر كلما بالغوا في السخرية منها.

وماذا عسى أن أقول عن أكذوبة أخرى صدقتها الشعوب القديمة وكأنها حقيقة لا ريب فيها؟ لقد اعتقدوا أن إبهام بيروس[1]، ملك الإيبيريين، يصنع العجائب ويشفي أمراض الطحال، وبالغوا في الأمر حتى رووا أن هذا الإصبع وجِد سليماً في الرماد بعد احتراق جثمان الملك كله (هكذا يفعل الشعب الغبي على الدوام فيخترع الأكاذيب ثم يصدّقها). هذه الروايات دوّنها كثيرٌ من الناس ولكن بأسلوب يدلّ بما لا يدع مجالاً للشك على أنهم التقطوها من الشائعات في المدن ومن أفواه العامة. من ذلك أن فاسباسيان[2] لما

---

١ Pyrrhus (٣١٩-٢٧٢ ق.م) ملك إيبيريا (٢٩٥-٢٧٢) من سلالة الإسكندر الكبير. تقاسم الحكم مع عمه ثم قتله بالسمّ. كان أفضل قائد عسكري يوناني في عصره، لكنه كان سياسياً غير نابه. مات في معركة شوارع في أرغوس. (المترجم)

٢ Vaspasianus فاسباسيانوس (٩-٧٩م). لم يرث شيئاً يؤهله للمنصب فهو حفيد قائد مئة في الجيش الروماني وابن جابي ضرائب. دخل السلك العسكري، وأصبح قائداً مرموقاً. نصّبه جيش الشرق إمبراطوراً فترك القيادة لابنه تيطس وعاد إلى روما. أراد الاستقرار والازدهار للإمبراطورية. أحبه الشعب ورأى فيه علامات النعمة الإلهية. شيد مبانٍ ضخمة منها مدرج روما المعرف بالكولوسيوم. خلفه ولداه تيطس الذي أخمد ثورة اليهود في فلسطين، ثم دوميتيانوس. (المترجم)

عاد من أشور ومرّ بالإسكندرية قاصداً روما ليستولي على الإمبراطورية صنع في طريقه العجائب: قوَّم العرجان، وردّ البصر إلى العميان، وأتى بأشياء عجيبة أخرى. ومَن لا يمكنه أن يرى ما في هذه الادّعاءات من غش فهو، في رأيي، لا يقلّ عمىً عن العميان الذين يُزعم أنه شفاهم.

حتى الطغاة أنفسهم يعجبون من قدرة الناس على احتمال رجل يسيء إليهم، وهم يحرصون على أن يضعوا الدين أمامهم ليحتموا به، ولو استطاعوا لاقتبسوا شيئاً من الألوهية لإسناد حياتهم الشريرة. والحال أن سالمونيوس[1]، إذا ما صدّقنا عرّافة فرجيل[2] في جحيمه، يرقد الآن في قاع جهنّم لأنه سخر من

[1] Salmonée [في الميثولوجيا اليونانية] ابن إيول Éole وأخو Sisyphe سيزيف [سارق النار ومهديها للبشر]. تقمّص دور جوبيتر وأراد أن يقلّد الصاعقة والرعد وهما سلاحا ملك الآلهة فركب عربة تجرّها أربعة أفراس وانطلق بها في شوارع المدينة وعلى متنها هرّ مقرون بصفائح برونزية، وراح يلقي بحزم القش والمشاعل الملتهبة في الشوارع، فغضب عليه جوبيتر وضربه بالصاعقة وألقاه في قاع الجحيم إلى الأبد (الأصل).

[2] Virgile (٧١-١٩ ق.م) أعظم شعراء روما. أهمّ مؤلفاته الإنياذة.

الناس وأراد أن يتقمّص جوبيتر[1]:

عانى آلاماً عظيمة لأنه أراد أن

يقلد جوبيتر في رعوده وصواعقه

اعتلى عربةً تجرها أربعة جياد

ورفع بيده مشعلاً كبيراً

واندفع يجري بين الناس

مخترقاً سوق مدينة إيليد

لقد تطاول بهذا التحدي

على الشرف العائد للآلهة وحدهم

وراح الأحمق يقلّد بالصنوج

وجري الجياد المخيف

الصاعقةَ والرعدَ اللذين يتعذّر تقليدهما

غير أن أبا الآلهة سرعان ما عاقبه

فرماه بالصاعقة الرهيبة

وألقاه في القاع ورجلاه فوق رأسه.[2]

---

١ Jupiter: كبير الآلهة في الميثولوجيا الرومانية. له هيكل في الكابيتول في روما وهيكل آخر في بعلبك – لبنان. (المترجم)

٢ ترجمة لا بويَسي، الإنياذة، الأبيات ٥٨٥–٥٩٤ (الأصل).

إذا كان هذا الذي لم يرتكب سوى حماقة لا يزال حتى الآن يلقى جزاءه في العالم السفلي، ففي اعتقادي أن أولئك الذين استغلّوا الدين لارتكاب الشرور سيجدون فيه شعارات أفضل.

لقد نثر ملوكنا في فرنسا شعاراتٍ لا أدري ماهيّتها مثل الضفادع، والزنابق، والقارورة المقدسة،[1] والشعلة الذهبية، التي لا أريد أن أرفض تصديقها مهما كان من أمرها، إذ لا نحن، ولا أجدادنا، وجدنا حتى الآن ما يدعو إلى عدم تصديقها. وقد كان لنا على الدوام ملوك صالحون في السلم وشجعان في الحرب، حتى لكأنهم وإنْ ولِدوا ملوكاً لم تصنعهم الطبيعة كالآخرين بل اختارهم اللهُ القوي القدير من قبل أن يولدوا لحكم هذه المملكة والحفاظ عليها.

وحتى لو لم يكن الأمر كذلك لما رغبت في

١ كانت الضفدعة رمز كلوفيس الذي استبدله بزهرة السوسن، أو الزنبقة، بعد انتصاره في إحدى المعارك. أما القارورة المقدسة فكانت تحتوي زيت تكريس ملوك فرنسا. وأما الشعلة الذهبية فكانت راية ملوك فرنسا منذ شارلمان (الأصل).

خوض نقاش حول صحة أخبارنا ولا تفنيدها لئلا أفسد جمال شعرنا الفرنسي الذي يتبارى فيه شعراؤنا الذين لم يلبسوه زياً جديداً بل خلقوه خلقاً جديداً أمثال رونسار[١]، وبابيف[٢]، وبلاّي[٣]، الذين دفعوا لغتنا إلى الأمام حتى بلغت، في اعتقادي، حداً يجعلني آمل ألاّ يعود لليونانيين ولا للاتين من مزية علينا إلا حق الأقدمية. وإني يقيناً لألحق أفدح الضرر بنظمنا (إنني أستخدم هذه الكلمة، ولا يزعجني ذلك، لأن كثيرين جعلوا من النَّظْم صنعة آلية إلا أن هناك عدداً كافياً من

١ Pierre Ronsar بيار رونسار (١٥٢٤–١٥٨٥)، من روّاد النهضة الأدبية في فرنسا. شاعر غنائي لُقّب بأمير الشعراء وشاعر الأمراء. نشأ في بيئة أرستقراطية ولازم البلاط الملكي. سافر إلى إنكلترا وألمانيا وإيطاليا، ودرس اللغتين اللاتينية واليونانية. نادى باعتماد لغة فرنسية جديدة مستقلة عن اللاتينية. من مؤسّسي جماعة الثريا (Plécade)، بدأ بكتابة ملحمة الفرنسياد ولم يكملها.

٢ Jean–Antoine de Baïf جان–أنطوان دو بابيف (١٥٣٢–١٥٨٩). صديق رونسار وعضو جماعة الثريا.

٣ Joachim Du Bellay، جواشيم جو بلاّي (١٥٢٢–١٥٦٠). أسس مع رونسار حلقة "الثريا". أشهر مؤلفاته الاعتذارات وهي مجموعة قصائد ساخرة كتب بمناسبة رحلته إلى روما بين عامي ١٥٥٣ و١٥٥٧. (المترجم)

الذين أعادوا إليه نُبله ورفعوه إلى مقامه الأول) أقول إنني أسيء إلى نَظْمنا أيّما إساءة إذا ما جرّدته الآن من هذه القصص الجميلة عن الملك كلوفيس[١]، بعد أن رأيت بأي سهولة وانشراح تفتّقت عنها قريحة رونسار في الفرنسياد[٢]. وإنني لأستشعر ما سيتركه من أثر، وأعرف حدّة ذهنه، ومدى لطفه، ولسوف يعلي من شأن الشعلة الذهبية إعلاء الرومان من شأن دروعهم المقدّسة[٣] "ودروع السماء ملقاة على الأرض"، كما يقول فرجيل. ولسوف يصون قارورتنا صيانة الأثينيين

١ Clovis كلوفيس (٤٦٦-٥١١) أول ملوك فرنسا الفرنج (٤٨١-٥١١). جرماني الأصل. وحّد القبائل الفرنكية تحت حكمه، مؤسس كل من فرنسا وحكم سلالة الميرجيين التي حكمت الفرنكيين مدة قرن. كان وثنياً ثم اعتنق المسيحية. (المترجم)

٢ *Franciade* الفرنسياد. ملحمة بدأ رونسار كتابتها ولم يكملها. تدور أحداثها حول الحروب ومآسيها وتروي بطولات وتضحيات ملك فرنسا فرنسوا الأول (١٤٩٤-١٥٤٧) في الحروب التي خاضها في إيطاليا ضد كارل الخامس أمبراطور ألمانيا وإيطاليا.

٣ في عهد نوما بومبيليوس Numa Pompilius في روما سقطت الدرع المقدسة من السماء كما قالت العرّافة الحورية إيجري، وارتبط مصير روما بها. أمر نوما بصنع إحدى عشرة نسخة من الدرع المقدّسة ووضع الاثنتي عشرة جميعاً في هيكل الإله مارس (الأصل).

سلّة أريكتون[1]. ولسوف يجعل الناس يتحدثون بفخر عن شعاراتنا كما يفخر الأثينيون بشجرة الزيتون التي ما زالوا يحفظونها في برج مينرفا[2]، ولذلك كان من قبيل الإهانة طبعاً لو أنني أردت تكذيب كتبنا والاقتداء بشعرائنا. لكن بالعودة إلى موضوعي، الذي لا أدري كيف انحرفت عنه، أقول إن الطغاة كانوا يبذلون قُصارى جهدهم لضمان أمنهم فيعوّدون الشعب لا على طاعتهم والإقرار بعبوديته لهم وحسب وإنما على

١ Le panier d'Erichtone سلّة أريكتون. أريكتون هو أول ملك أسطوري للأثينيين. لما ولِد أريكتون وضعته الإلهة أثينا في سلّة وعهدت بها إلى حرس بنات سيكروب. وعندما فتحنَ السلة وجدنَ فيها طفلاً هو نصف إنسان ونصف حيّة فألقين بأنفسهنّ من الرعب في أسفل صخرة الأكروبول. يُنسب إلى أريكتون اختراع العجلة أو المركبة الرومانية. (المترجم)

٢ شجرة الزيتون هي الشجرة المباركة عند الأثينيين لأنها شجرة الإلهة أثينا (منيرفا اسم آخر لها). تروي الأسطورة أن الآلهة لما أرادت أن تسمي المدينة باسم أحد الآلهة رست المشورة على بوسيدون، إله البحار والمياه، ومينرفا أو أثينا إلهة العقل والحكمة، على أن يأتي الفائز بشيء أكثر فائدة للإنسان، فضرب بوسيدون برمحه ذي الشعب الثلاث فولِد على الفور حصان جميل بهر الآلهة. أما أثينا فضربت الأرض بعصاها فنبتت على الفور شجرة زيتون، ففازت على بوسيدون، وسميت المدينة أثينا باسمها. (المترجم)

أن يخلص لهم كلَّ الإخلاص أيضاً.

وإن ما قلته حتى الآن - عن الوسائل التي استخدمها الطغاة لتعليم الناس كيف يخدمونهم طواعية -لا ينطبق إلا على السُذّج وهم عامة الشعب. غير أنني أصل الآن إلى نقطة هي، في رأيي، محرّك الهيمنة وسرّها وهي عماد الطغيان وأساسه.

إن مَن يظن أن الرماح والحرّاس ومواقع الرصد هي التي تحمي الطغاة يرتكب خطأ فادحاً في رأيي؛ فالطغاة يستخدمون هذه الأدوات، في اعتقادي، من أجل المظاهر وكفزّاعة وليس بناءً على ثقتهم فيها. وذلك أن مهمة حملة الأقواس هي أن يمنعوا من دخول القصر ذوي الملابس الرثّة الذين لا حول لهم ولا طول، وليس أولئك الذين يستطيعون أن يشنّوا الغارة.

ومن السهل يقيناً أن نتبيّن أنّ عدد الأباطرة الرومان الذين نجوا من بعض المخاطر بمساعدة حرّاسهم أقل من عدد الذين قُتلوا على أيدي حملة الأقواس من حراسهم. فليس فرق الخيالة ولا كتائب المشاة ولا الأسلحة هي

التي تحمي الطاغية، ولن يصدّق أحد للوهلة الأولى أمراً مؤكداً في الحقيقة وهو أن مَن يثبّت الطاغية في طغيانه قلة من الرجال لا يتجاوز عددهم الأربعة أو الخمسة، أربعة أو خمسة يبقون البلاد مستعبَدةً له؛ ولطالما كان خمسة أو ستة من الرجال هم مَن يعيرهم الطاغية أذناً صاغية، يتقربون إليه من تلقاء أنفسهم أو يدنيهم هو منه ليكونوا شركاءه في فظائعه، ونداماه في لذته، وقوّاديه في شهوته، ويقاسمونه غنائم نهبه، هؤلاء الستة يدرّبون رئيسهم على أن يكون شريراً حيال المجتمع، لا بشروره وحده، بل بشرورهم أيضاً. وتحت هؤلاء الستة يوجد ست مئة تابع لهم يستفيدون منهم، ويصنعون بهؤلاء الست مئة ما يصنعه الستة بالطاغية من سوء السيرة. وتحت الست مئة هناك ستة آلاف يوعدون بحكم بعض المقاطعات أو التصرّف بإدارة الأموال العامة لكي يقفوا على جشعهم وعلى قسوتهم - ولكي يوقعوا بهم في الوقت المناسب - ويرتكبوا كثيراً من الشرور بحيث لا يمكنهم الاستمرار إلا في ظلهم، ولا البقاء بمنأى عن القوانين والعقوبات إلا بفضلهم.

وما أطول سلسلة الأتباع الذين يأتون بعد ذلك، فمن أراد أن يتتبع هذه السلسلة فلن يجد السّتة آلاف، بل المئة ألف، بل الملايين الذين تشدهم هذه السلسلة إلى الطاغية، مثل سلسلة جوبيتر الذي ينسب إليه هوميروس قوله متباهياً إنه لو شدّها لجذب إليه الآلهة كلهم. من أجل ذلك كانت زيادة عدد أعضاء مجلس الشيوخ في عهد يوليوس، وإنشاء وظائف ومناصب جديدة، وما ذلك يقيناً لإصلاح القضاء ولكن لخلق دعائم جديدة للطغيان. وبالجملة فثمة طغاة يحقق البعض من ورائهم مكاسب وحظوات، وفي النهاية يتساوى من حيث العدد مَن يبدو لهم الطغيان مفيداً ومَن يستسيغون الحرية.

وكما يذهب إليه الأطباء من أن جسم الإنسان إذا شكا منه عضو فإن سائر الأعضاء تتأثر به وتنجذب إليه، كذلك ما إن يعلن ملك أنه أصبح طاغية حتى يلتف حوله ويعضده حثالة المملكة - ولا أعني رهطاً من صغار اللصوص الذين لا يُرجى منهم خير ولا شر بل أولئك الذين يتملّكهم طموح جامح وجشع شديد - لكي

ينالوا نصيباً من الغنيمة وليصبحوا طغاةً صغاراً في ظل الطاغية الكبير. هذا ما يفعله عُتاة اللصوص والقراصنة المشهورون: بعضهم يستطلع البلاد وبعضهم يردف وراءه المسافرين، يكمن بعضهم ويراقب آخرون، فريق يقتل وفريق يسلب، وإذا ما وجِد بينهم تمايز، ولم يكن بعضهم إلا أتباعاً والآخرون رؤساء، فما من أحد منهم إلا ويهتم بالغنيمة الرئيسة أو السعي وراءها. ويقال إن قراصنة صقلية لم يبلغوا من الكثرة حداً استدعى إرسال بومبي الكبير[1] لمحاربتهم فحسب بل تحالفوا مع عدد كبير من المدن الجميلة والحواضر الجليلة التي كانوا يلجأون إليها عند عودتهم من غزواتهم ويدفعون لها قسطاً من الأرباح نظير إخفاء أسلابهم.

هكذا يستعبد الطاغية رعاياه بعضهم عن طريق بعض، ويقوم بحراسته أولئك الذين لو كانوا يساوون

---

١ Pompée Le Grand أو بومبيوتس Pompeius (١٠٦-٤٨ ق.م) قائد روماني ورجل دولة. أحد حكام روما الثلاثة مع قيصر وكراسوس (٦٤ ق.م) عارض قيصر فهزمه في إحدى المعارك فلجأ إلى مصر. اغتيل. (المترجم)

شيئاً لكان عليه أن يحترس منهم. ولقد صدق المثل القائل: "لا يفلّ الحديد إلاّ الحديد". انظر إلى قوّاسي الطاغية، انظر إلى حرّاسه، انظر إلى رمّاحيه، تجد أن هؤلاء الخاسرين والمنسيين من الله والناس لا يعانون منه أحياناً فحسب بل إنهم سعداء بأن يتحملوا الأذى لا ليُذيقوه لمن آذاهم بل لينزلوه بأولئك الذين يتحمّلون الأذى مثلهم ولا يسعهم إلا الصبر عليه.

غير أنني، وأنا أشاهد هؤلاء الناس الذين يقفون أذلاّء على أبواب الطاغية لكي يحققوا غاياتهم من وراء الطغيان وعبودية الشعب، غالباً ما يأخذني العجب من خبثهم، وأشفق عليهم أحياناً لحُمقهم، لأنه ماذا يعني في الحقيقة التقرّب من الطاغية سوى الابتعاد عن الحرية واحتضان العبودية بالذراعين إذا جاز القول. فليضعوا جانباً طموحهم لبعض الوقت، وليتخلّوا عن طمعهم، ثم فلينظروا إلى أنفسهم ويتعرّفوا إليها، ولسوف يرون بوضوح أن أهل القرى والمزارع الذين يدوسونهم بالأقدام متى أمكنهم ذلك، ويعاملونهم معاملة أسوأ من معاملة المحكومين بالأشغال الشاقة

والعبيد، هم مع ذلك أوفر حظاً وأحرارٌ قياساً عليهم: فالفلاح والحِرفي، وإنْ كانا مستعبدين، يتخلّصان مما هما فيه حالما يفعلان ما يؤمران به. غير أن الطاغية يرى القريبين منه وهم يتملّقونه ويتسوّلون الحظوة عنده، وليس على هؤلاء أن يعملوا بما يأمر به الطاغية فحسب بل عليهم أيضاً أن يفكّروا في ما يريد وغالباً ما يحدسون بما يفكر هو فيه طلباً لمرضاته. وليست طاعة الطاغية هي كل ما يتوجب عليهم حياله بل لا بدّ أن ينقطعوا له، وأن يتعذّبوا، وأن يستميتوا في العمل من أجل مصلحته، وعليهم أن يلتذّوا للذّته، وأن يتخلّوا عن أذواقهم لذوقه، وأن يكلّفوا أنفسهم ما ليس من سجيّتهم، وأن يتجرّدوا من طبيعتهم. ثم إن عليهم أن ينتبهوا لكلامه، وصوته، وإشاراته، وعينيه، وأن لا تكون لهم أعين، ولا أرجل، ولا أياد، إلا لترصد رغباته وتكتشف أفكاره. أفهذه حياة سعيدة؟ أو تسمّى حياة؟ أفي الدنيا كلها ما هو أصعب على المرء احتمالاً من هذا الوضع؟ ولا أقول ذلك عن رجل ذي قلب، ولا عن رجل كريم المحتد، ولكن عن رجل يمتلك الحسّ

المشترك ليس إلاّ، أو له وجه إنسان بكل بساطة؟ أيّ وضع أتعس من أن يحيا المرء على هذا النحو، لا يملك شيئاً لنفسه، ويستمدّ من غيره راحته، وحرّيته، وجسده، وحياته؟

غير أن هؤلاء يريدون أن يُستعبدوا ليحوزوا الأملاك كما لو أن بوسعهم أن يملكوا شيئاً بينما لا يمكنهم أن يقولوا إنهم يمتلكون أنفسهم، وكما لو أن أحدهم يستطيع أن يملك شيئاً خاصاً به في ظل طاغية! إنهم يريدون أن يتصرّفوا بناءً على أن الأملاك لهم متجاهلين أنهم هم الذين يعطون الطاغية القوّة لكي يسلب كلّ شيء من الكلّ ولا يترك لأحد منهم شيئاً يمكنه أن يقول إنه له. إنهم يَرون أن لا شيء يجعل الناس عُرضةً لقسوته كالأملاك، وما من جريمة تُرتكب في حقه ويُعاقب عليها بالموت مثل حيازتهم ما يعتاشون به. لا يحب سوى الثروات ولا يصادر إلا الأثرياء؛ ثم إنهم يمثلون بين يديه مثولهم أمام الجزّار ممتلئين ومخدوعين لإثارة شهوته. هؤلاء المحظيون لا ينبغي لهم أن يتذكروا أولئك الذين جنوا مغانم كثيرة

من التفافهم حول الطاغية بل الأحرى أن يفكروا في الذين غنموا شيئاً في وقت ما ثم خسروا ما غنموه وحياتهم معاً، وكان الأجدر بهم أن لا أن يتذكروا الكثرة التي اغتنت بل القلّة التي استطاعت الاحتفاظ بما غنمته.

فلنستعرض جميع القصص القديمة ولننظر في القصص الماثلة في ذاكرتنا ولسوف نرى كم كان كبيراً عدد أولئك الذين استمالوا بوسائل رديئة سمع الأمراء مستعينين بخبث طباعهم، أو مستغلين سذاجتهم، ثم كان هلاكهم على يد هؤلاء الأمراء أنفسهم، بقدر السهولة التي أعلوا بها مقامهم كان انقلابهم عليهم والبطش بهم سهلاً. والحق أن عدداً كبيراً من الذين عاشوا في كنف الملوك الأشرار لم ينج منهم إلا نفر قليل، إن لم نقل لم ينجُ منهم أحد، من بطش الطاغية الذي كانوا قد حرّضوه من قبل على البطش بالآخرين. لقد سبق لهم أن اغتنوا من سَلْب الغير في ظل ما نعموا به من الحظوة وانتهى بهم الأمر أن اغتنى غيرُهم بما كانوا قد سلبوه هم.

إن الأخيار من الناس - حتى وإن وجد بينهم أحياناً مَن يحبّه الطاغية، هؤلاء مهما غمرهم هذا الطاغية بفضله، ومهما بانت عليهم أمائر الفضيلة والنزاهة التي تفرض على أخبث الناس احترامهم عندما يرونهم - أقول إن هؤلاء الأخيار لا بقاء لهم في كنف الطاغية ولا بد أن يصيبهم ما أصاب الجميع وأن يعانوا هم أيضاً من الطغيان.

إن سينيكا[1]، وبوروس[2]، وترازياس[3]، هذا الثلاثي الفاضل، كان من سوء طالع اثنين من أفراده بوجه خاص

---

١ Sénèque أو (Ceneca) سينيكا (٤ ق.م-٦٥م). ولد في قُرطبة بالأندلس. سياسي روماني وفيلسوف استوحى مبادئه الفلسفية من المدرسة الرواقية. كان مُربي نيرون ومستشاره في الحكم إلى أن طغى نيرون وشذّ. اتهمه نيرون بالتآمر عليه وأكرهه على الانتحار.

٢ Burrus. كان والياً على آسيا الصغرى (٤٠-٤١) في عهد الإمبراطور كلوديوس. عمل مع سينيكا مستشاراً لنيرون ومارس نفوذاً إيجابياً عليه لمدة خمس سنوات. قيل إن نيرون أمر بقتله، وذهب بعض المؤرخين إلى أنه مات بمرض في حنجرته عام ٦٢. (المترجم)

٣ Thraseas. فيلسوف روماني. عضو مجلس الشيوخ. عاش في عهد نيرون. اعتبرت أفكاره الفلسفية الرواقية انتقاداً لطيش نيرون. حكم عليه مجلس الشيوخ بالموت وكان غائباً في بيته فدخل غرفته وقطع شرايين يديه ومات. (المترجم)

أن قرّبهما الطاغية منه وعهد إليهما بإدارة أعماله، وكانا موضع تقديره وإيثاره - لا بل كان أحدهما قد تولّى تنشئة الطاغية وكان له من تعليمه في طفولته ضمان لصداقته - هؤلاء الثلاثة كان مقتلهم بطريقة وحشية شاهداً على أن الحظوة لدى سيّد شرير لا تشكل ضماناً للمحظي، وأي صداقة في الواقع يمكن أن تُرجى ممن قسا قلبه حتى كره مملكته التي لم تفعل شيئاً سوى طاعته وجفا طبعه حتى ما عاد يعرف إلا أن يفتقر هو ويدمّر إمبراطوريته؟

وعلى ذلك لو أردنا أن نقول إنّ هؤلاء حاقت بهم هذه النكبات لأنهم عاشوا حياةً فاضلة لكان علينا أن نُلقي نظرة جريئة حول هذا الطاغية نفسه، ولسوف نرى أن أولئك الذين نالوا حظوته بوسائل رذيلة لم تطل أيامهم. فمن سمع عن حُبّ بلغ حدّ التدلّه، وعن تعلّق لا حدود له، ومن الذي قرأ في أي يوم من الأيام عن رجل هام بامرأة مثل هيام نيرون ببوبي[1]؟ ثم دسَّ لها السم

[1] Poppée أو بوبي سابينا. الزوجة الثانية لنيرون. أجمل نساء روما. كانت عشيقة، أو زوجة، القائد أوتون Othon، صديق نيرون، قبل أن =

فقتلها! وكانت أُمّه أغريبيا قد قتلت زوجها كلوديس لكي تضع ابنها على رأس الإمبراطورية، ولم تتردّد في القيام بأي عمل للإعلاء من شأنه. فإذا ابنها هذا، رضيعها، إمبراطورها، صنيعة يدها، يقدم في النهاية على إهانتها مراراً ثم ينتزع حياتها، وما كان أحد ليقول إنها لا تستحق هذا العقاب لو كانت اليد التي أوقعته بها غير يد ابنها.

مَن كان أسلس انقياداً، وأكثر سذاجةً، أو الأصح أكثر بلهاً، من كلوديوس[1]؟ أي رجل كان أشد تدلُّهاً بامرأة منه بميسّالينا[2]؟ ومع ذلك فقد سلّمها في النهاية للجلاد:

= تصبح عشيقة نيرون ثم زوجته. حرّضت الإمبراطور على قتل زوجته الأولى أوكتافيا، وكان نزاعها مع أمه أغريبينا من أسباب قتلها على يد ابنها نيرون. قتلها نيرون بركلة قوية وهو غاضب، ثم أسف على موتها وأقام لها جنازة عظيمة. (المترجم)

١ Claudius (١٠-٥٤م) إمبراطور روماني (٤١-٥٤) اشتهر بفتح بريطانيا. لم يكن محظوظاً مع زوجاته. الأولى أورجونيلا التي كانت فارعة الطول وبشعة. والثانية ميسالينا التي خانته مع عدد من أعضاء مجلس الشيوخ، فقتلها. والثالثة أغريبينا التي قتلته بالسمّ لكي يرتقي العرش ابنها نيرون. (المترجم)

٢ المصدر نفسه.

إنّ سذاجة الطغاة، إنْ وجِدت، تتبدّى دائماً في جهلهم العمل الحسن، ولكنني لست أدري كيف أنهم يفطنون له في النهاية عندما يبطشون بالقريبين منهم.

مَن لا يعرف النادرة التي جاءت على لسان ذلك الرجل الذي رأى يوماً صدر المرأة التي كانت أحب النساء إليه، ولا يهنأ له عيش من دونها، عارِياً فداعبها قائلاً: "هذا العنق الجميل قد يقطع عن قريب إن أردت". لذلك لاقى معظم الطغاة القدماء حتفهم على أيدي المقرّبين إليهم، هؤلاء الذين لما عرفوا طبيعة الطغيان ما عاد يمكنهم الاطمئنان إلى إرادة الطاغية مثلما احترسوا من قوته. هكذا قُتِل دوميسيان[1] على يد ستيفانوس، وكومود[2] على يد إحدى محظياته،

١ أو Domitianos دوميسيانوس (٥١-٩٦). إمبراطور روماني (٨١-٩٦). اغتيل في القصر الإمبراطوري من قبل حاشيته وبينهم زوجته وخادمة. (المترجم)

٢ أو Commodius كومودويس. إمبراطور روماني (١٨٠-١٩٢) قُتِل مخنوقاً في مؤامرة دبّرتها زوجته مارسيا. (المترجم)

وأنطونال[1] على يد ماكرين[2] وهكذا كل الآخرين تقريباً.

وذلك على وجه اليقين أن الطاغية لا يُحِبّ ولا يُحَبّ. فالصداقة اسم مقدّس، ولها حُرمة، لذلك لا تقوم إلا بين الأفاضل ولا تكون إلا بالتقدير المتبادل، ولا تصان بإسداء المعروف وإنما تديمها الحياة الفاضلة. وما يجعل صديقاً مطمئناً إلى صديقه هو معرفته بنزاهته واستقامته. يضمن ذلك ما يراه فيه من طيبة طبيعية، ومن إيمان، ومن ثبات. ولا مكان للصداقة حيث القساوة، والخيانة، والظلم. ولا تكون بين الأشرار إذا اجتمعوا صحبةً بل تآمر. فهم لا يتحابّون بل يتحاذرون، وما هم بأصدقاء بل متواطئون.

وإذا ما ضربنا صفحاً عن موانع كهذه ونظرنا في قلب الطاغية لوجدناه خلواً من الحب الصادق، لأنه وقد علا الجميع لم يعد له من صاحب بعد أن تجاوز

---

١ أو Antoninus أنطونينوس. إمبراطور روماني (١٣٨-١٦١). ابن هادريان بالتبني. بلغت روما في عهده أوج ازدهارها.

٢ أو Macrinus ماكرينوس. إمبراطور روماني (٢١٧-٢١٨). كان قائد الحرس الإمبراطوري في عهد كاراكلا وشارك في قتله. بعد ذلك قُتِل هو على يد جنوده بعد تخاذله في الحرب مع الفرس.

حدّ الصداقة التي مطلبها الحقيقي هو المساواة، التي لا تريد أن تكون خطواتها عرجاء بل متساوية على الدوام. لهذا نجد بين اللصوص (على ما يقال) نوعاً من الثقة المتبادلة عندما يتقاسمون الغنيمة، لأنهم متساوون ورفقاء، وإن لم يتجاوبوا فهم يحذرون بعضهم بعضاً ولا يريدون إضعاف شوكتهم بتفرّقهم. غير أن المقربين إلى الطاغية لا يمكنهم الإطمئنان إليه أبداً، ولا سيّما أنه تعلّم منهم أنه قادر على كل شيء، وما من حق ولا واجب يُلزمانه، فصمّم على اعتبار إرادته عين العقل، وعلى ألا يكون له رفيق، وأن يكون هو سيّد الكل.

إذاً أليس مما يثير الشفقة أن لا يتعظ أحد بكثرة ما يراه من الأمثلة الواضحة والخطر الماثل، وأن لا يجد أحداً من هذا العدد الكبير من الناس الذين يتقرّبون طواعيةً إلى الطغاة يمتلك من التبصُّر والشجاعة ما يمكّنه من أن يقول لهم ما قاله، في الحكاية، الثعلب للأسد الذي تظاهر بالمرض: "كنت لأزورك طواعيةً في عرينك لولا أنني أجد ما يكفي من آثار البهائم التي تدخل عليك ولكنني لا أرى أثراً لأحد منهم يخرج من عندك"؟

هؤلاء البؤساء يرون كنوز الطاغية تلمع ويبهرهم بريق إسرافه فيغترّون بهذا الضوء ويقتربون منه غير مدركين أنهم يلقون بأنفسهم في اللهب الذي لا يلبث أن يحرقهم، شأنهم في ذلك شأن الساتير[1] المتطفّل، كما جاء في الحكايات القديمة، الذي رأى ضوء النار التي اكتشفها بروميثيوس[2] فأُعجب ببهائها وأقبل نحوها ليقبّلها فاحترق. كذلك شأن الفراشة التي تلقي نفسها في النار آملةً أن تجد فيها بعض اللذة لأنها تلمع فتقع عندئذٍ على فضيلتها الأخرى، تلك التي تحرق (على ما يقوله الشاعر التوسكاني[3]). لكن لنفرض أن هؤلاء

١ Satyre. الساتير كائنات خرافية في الميثولوجيا اليونانية. لها أجسام ممسوخة نصفها الأعلى إنسان ذو لحية وقرون والأسفل تيس أو حصان. هم شياطين الريف والغابات حيث يتجّولون نافخين بالمزمار. يؤلفون حاشية ديونيزوس إله الخمرة عند اليونان. (المترجم)

٢ Prométheus إله النار في الميثولوجيا اليونانية. اختطف النار المقدسة من زيوس كبير الآلهة ونقلها إلى الناس فغضب عليه زيوس وقيّده على جبل القوقاز حيث كان ينهش كبده المتجدّد باستمرار عُقاب كاسر. خلّصه هيراكليس. (المترجم)

٣ *Canzonière*, 96, 141-194 (الأصل) كانزونيار، أو كتاب الأغاني للشاعر الإيطالي فرنشسكو بترارك. (المترجم)

المقربين يفلتون من قبضة الملك الذي يخدمونه غير أنهم لن يسلموا من الملك الذي يأتي بعده. إن كان طيباً لا بدّ من الاعتراف بما فعلوه، وإن كان سيئاً وشبيهاً بسيّدهم السابق فلن يكتفي رجاله باحتلال الأماكن التي كان يشغلها غيرهم بل يستولون على أملاكهم وحياتهم في معظم الأحيان.

أفيمكن إذن أن يوجد مَن يرغب، في ظل هذا الخطر الوبيل، أن يشغل هذا المكان المشؤوم لكي يعاني الأمرّين في خدمة سيّد خطير إلى هذا الحد؟ أي مشقّة، وأي عذاب هذا يا إلهي الحقّ! أن يفكر المرء ليلاً ونهاراً كيف يرضي أحداً ما، وهو مع ذلك يحذره أكثر مما يحذر أي إنسان آخر في العالم، وأن يبقي عينيه مفتوحتين، وأذنيه صاغيتين، لكي يحدس من أين تأتيه الضربة، ويكتشف الأفخاخ، وأن يسبر نوايا أصحابه ليعلم أيهم سيغدر به، وأن يبتسم لكل واحد منهم فيما هو يحذر الجميع؛ لا يرى عدواً واضحاً ولا صديقاً موثوقاً؛ وجهه باسم وقلبه منقبض، لا يمكنه أن يكون مسروراً ولا يجرؤ على أن يكون حزيناً.

ولكن الممتع هو النظر في ما يعود على هؤلاء من هذا العذاب العظيم، وفي الخير الذي يمكن أن يتوقعوه من وراء شقائهم ومن حياتهم البائسة. وذلك أن الشعب لا يضع اللوم على الطاغية في ما يعانيه بل يعزو ذلك إلى الذين يسوسونه. هؤلاء تعرف أسماءَهم الشعوب، والأمم، والعالم أجمع وحتى القرويون والفلاحون يعرفونها. وهم يكشفون عيوبهم، ويصبّون عليهم ألف إهانة، وألف شتيمة، وألف لعنة. كل صلواتهم، وكل أمنياتهم، تتوجّه بالدعاء عليهم، ويلومونهم على كل ما يحيق بهم من مصائب، وأوبئة، ومجاعات، وإذا ما أبدوا لهم أحياناً بعض التبجيل فإنهم يلعنونهم في قلوبهم ويرهبونهم أكثر من رهبتهم الوحوش الضارية.

هذا هو المجد، وهذا هو الشرف، اللذان يعودان على أتباع الملك المقربين جزاء ما فعلوه بالناس الذين لو كان لكل منهم أن يقتطع جزءاً من أجساد هؤلاء لما اشتفى ولا تخفّف من نصف شقائه، وحتى إذا ماتوا فلن يتقاعس الذين يأتون بعدهم عن تسويد أسماء أكلة الشعوب هؤلاء بحبر ألف ريشة، وتمزيق سمعتهم في

ألف كتاب، وحتى عظامهم، إذا جاز القول، تسحلها الأجيال القادمة بعد موتهم عقاباً لهم على ما اقترفوه من شرور في حياتهم.

لنتعلّمْ، إذن، لمرّة أن نُحسِن التصرّف، ولنرفع أعيننا نحو السماء صوناً لكرامتنا، أو حُبّاً بالفضيلة ذاتها، أو إذا تكلّمنا عن علم، وعلى وجه اليقين، حُباً بالله الكليّ القدرة وإجلالاً له، وهو الشاهد الذي لا يغفل عن أفعالنا، والقاضي الذي يحكم بالعدل على أخطائنا. أما أنا فأعتقد، ولستُ بمخدوع، أن الله الغفور الرحيم، لمّا كان الطغيان أبغض شيء إليه، قد أعدّ للطغاة وشركائهم عقاباً خاصاً في الدار الآخرة.